مؤنس الرزّاز

رواية

الشظايا والفسيفساء

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مؤنس الرزّاز

رواية

الشظايا والفسيفساء

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الشظايا والفسيفساء

رواية

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب ، ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس ، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى
١٩٩٤

كتاب
الشظـايا والشــروخ

ــ ١ ــ

ملاحظة : يـقـال إن الأوراق «المشظاة» المبـعـثـرة في هذا الكتـاب من وضع عـبدالكريم إبراهيم. أما أوراق «الفـسـيـفـساء» المفتتة فهي من وضع سمير إبراهيم . .
والله أعلم!

شظية

عـاد الى الأردن بعـينين تتـوهجان بالجنون وذاكرة ملغومة. لا يعـرف أي حظ عـجـائبي أنقـذه من مـراصـد الموت. كان مـدمـراً مـثل سندباد عـاد من رحلة مـغـامـرات في بحـار من الألغـام والألغاز القاتلة. ارتمى على يابسة عمان.

وأخـذ يلتـقط أنفـاسـه كأنه بحار أسطوري خرج لتوّه من الأعماق السـحـيـقـة لمحيط مظلم صاخب. لم يكن يرغب في الجنس أو الطعـام أو التـدخين. كـانت تستـحـوذ عليـه رغبة عـارمة بالراحة والتأمل والكسل.

استقر في جبل المتقاعدين. جبل اللويبدة. صديقه الكاتب الأردني الـذي تـركـه في بـيروت قــال لـه: إن عمان مـديـنـة المتقاعدين. قال:

ـ هذا مـا أبحث عنه بالضـبط.. بعـد كل هذا الصـخب والجنون.

راح ينفق النهـار بالتـثـاؤب اللذيذ. استأجر بيتاً قديماً، لا هـاتـف فـيـه ولا جـرس بـاب. في الليل يضطجع على أريكة ويتـفـرج على التلفـزيون. أدمن التلفـزيون، وأفـلام الفيديو. حـتى المسلسـلات المصرية السـخيفة صار يتابعها بمتعة. يقرأ صـحـف الـصـبـاح وهو يحتسي فنجـان قـهـوة. ثم يخرج الى الحـديقـة الصـغيرة فـيـسـقي نبـاتاتها ويرش أرضها. يعود الى الـصـالـة الـصـغـيرة، يـفـتح كـتـابـاً من كـتب «أرسين لوبين» ويطالعـه. قـالوا له في بيروت خـذ مكتـبتك الهائلة معك الى عمان، فـرفـض. أحـرقـهـا. أحـرق كـتب مـاركس وسـاطع الحصري والنفـري ودوستيفسكي.

في المسـاء كـان يخرج من جـحره، فيعرج على صديق أبيه

الشيخ المقعد، يثرثران قليلاً، يلومه الشيخ على عزلته. يقول:

- الجنة بلا ناس لا تداس.

فيرد عبدالكريم المتقاعد ابن الأربعين:

- أرغب في جحيم العزلة.

ثم يمر عبدالكريم على رابطة الكتّاب، فلا يعثر فيها إلاّ على سكرتير الرابطة. يعتذر السكرتير عن خلو الرابطة من الرّواد. يقول:

- منذ السماح بتعددية الأحزاب وترخيصها.. فقدت الرابطة فعاليتها.

يقول: إن الرابطة، أيام زمان.. أيام الأحكام العرفية.. كانت خلية نحل.

ويسأله السكرتير:

- لماذا لا تبحث عن وظيفة تقتل بها الوقت؟

***

تقرير

اكتشفت أن لا مجال لقتل الفراغ والخواء والملل، إلاّ بأسلوبين : إدمان العمل العام، أو الاستجارة بالخمر. أي (بصراحة أكثر) الانتماء الى حزب يستنزفك بالمهمات المرهقة التي تصادر وقتك المخصص للكآبة والملل واليأس. أو الاقبال على سائل ينحدر غدة الإحساس بالزمن.

قلت لسمير: إن خلاصه يكمن في الانتماء الى حزبنا أو أي حزب آخر. كان يترنح، والخمر تعبث بكلماته ولسانه. قال :

وما هي استراتيجية حزبكم؟

قلت: إننا نسعى الى إبداع لغة تنسجم مع القرن الحادي والعشرين، وإننا نصبو الى مراجعة نقدية عقلانية لحركة التحرر العربية، وإننا نحاول ابتكار مفاهيم «عصرانية» جديدة أشبه ما تكون بالإحياء.

قال ـ وهو يتداعى على سريره بلا مبالاة ـ إن كلامي ليس سوى قصيدة شعر، وإنشاء. حدثته عن العصر التكنوالكتروني، وعن ما بعد الحداثة. فقال بلهجة تنم على سخرية إنه يرغب في حلّ مشكلة ندرة الماء في «الطفيلة» وابتكار «الخدمات» في وادي موسى.

قال : إن السياح يأتون الى وادي موسى بباصات فاخرة، وكالات السياحة تزودهم بالساندويشات، والبيبسي كولا، والنسكافيه. يأتون الى وادي موسى للتحديق فقط. ثم يمضون الى البتراء، حيث تتكرر المسألة. ثم ينطلقون الى العقبة. قال إن سكان وادي موسى لا يستفيدون من

السياح، ما دام الساندويش والكازوز والمناديل مؤمنة من عمان أصلاً.

لم يكن سمير من سكان الجنوب، كان من سكان عمان، عمان الحبيبة التي يصر كثير من الناس على اعتبارها مدينة بلا أصل. فأنت «كركي» تسكن في عمان أو «نابلسي» تعيش فيها، وهي الصبية اليتيمة المقطوعة من شجرة مثل حورية خارقة في حكاية خرافية تشرح النفس وتثير القلوب.

منذ عشرين عاما لم أختلف الى «سينمات» البلد. كنا نرتاد دور السينما زرافات زرافات. كنا عصابات وشللاً. صحيح أن دور السينما فقدت بريقها وانقرضت وأن الفيلم ظل فيلما نراه على شاشة التلفزيون أو الفيديو، لكن العلاقة الجماعية، والروابط السرية بين رواد السينما.. انقرضت تماما. (على الأقل بالنسبة لما يسمى بالنخبة).

ما زلت أذكر فيلم «دكتور زيفاغو» في سينما الخيام. كنا نطلق الصفير إذا شاهدنا بوصة من فخذ ممثلة، كنا نتصهون ونطلق القهقهة فنعدي «مجتمع السينما»، واحد من «الشلة» ينتحب إثر مشهد هندي حزائني.. فينتحب الآخرون.

وها هي دور السينما تندثر بالنسبة لنا، نحن أبناء جيل ما قبل التلفزيون والفيديو وألعاب الكمبيوتر وصحن الالتقاط المعروف بـ«الدش».

كنا نجلس في العتمة، بعد الهرب من المدرسة: ثلاثة أفلام بتذكرة واحدة. نصفّر.. «إيه يا جميل» «اشتغل الفيلم». نبحث عن الجنس تحت الستائر. نصبو الى الجسد رغم الحواجز. نكتم وشوشة العشق من طرف واحد. نعشق الممثلات وهن في غيبوبة عن حضورنا.

في بيروت شربنا حتى الثمالة. قلنا ونحن نرفع الكؤوس:

بحق هزيمة حزيران .

قـالت الأرتيست الأجنبية : إنها تكره السياسة .

***

في بيروت رغـائب جـهنمـيـة قابلة للإشباع . ولا رقيب ولا حسيب سوى الله جلّ جلاله .

***

تقرير

الطبقة البورجوازية في عالمنا متخلّفة لا ثورية كما قال المرحوم ماركس. فصديقي الذي سافرت معه الى فيلا فاخرة تقع على شاطىء جزيرة رودس رفض أن تستحم زوجته في البحر، على الرغم من أن رواد الشاطىء من جنسيات غربية. ولا يوجد أي عربي قد يشاهدها باستثنائنا : بورجوازيتنا تمتلك رأساً بدائياً يمشط شعر رأسه ببول الإبل!

***

تقرير

سميرة قالت: إن خطيبها سوف يقبل اليوم من أميركا. كانت تغالب صوت رغائبها حيناً وتكتمه حيناً، ولا تطلقه أبداً.

أبوه وأمه قالا: إنهما سيحملانها الى المطار. سميرة رفضت. قالت إن شقيقها سمير سوف يحملها الى المطار. سمير جاثم على أرض المطبخ بعد أن احتسى ثلاثة أرباع زجاجة ويسكي.

سمير لا يذكر أن أخته «تملك» خطيباً. كان حانقاً على الحكومة قال: إنها وزارة حزب عشائري، ولد من رحم مرحلة الأحكام العرفية.

سمير يرغب في أن يصدق الانفراج الأردني، ولكن ماذا عن الحكومة الجديدة، حكومة رفع الأسعار والحل السلمي؟

كالعادة دهمه الانفصام. كان مع العراق ضد أميركا، لكنه كان أيضاً ضد انتهاك حقوق الإنسان هناك. أي فصام

حقيقي . . ؟

لم يكن الطقس محتشماً. كان بذيئاً يلحس الأجساد والحجارة ببذاءة حارة ساخنة. ثمة ذبابة تدور حول أنفه، ومروحة كهربائية تدور حول نفسها، والأرض (كما علّمونا) تدور حول نفسها، وحول الشمس.

***

تقرير

ندخل في الغزو. ننهب الغنيمة. البدو يراقبوننا بحياد جائع. القبائل سوف تخسر إذا قام الخط الحديدي الحجازي. فالقبائل تمنح الحماية والغذاء للحجيج.

القطار سوف يصادر لقمة عيش القبائل.

كانت «سارة برنار» مغنية الأوبرا الأوروبية الشهيرة تصدح في «دار الأوبيرا» في القاهرة.

القاهرة تستقبل «سارة برنار» في الأوبرا. وفي هذه المنطقة من العالم كانت بعض القبائل تغزو الخط الحديدي الحجازي.

قلت : ـ

ـ ثمة تباين في التطور الحضاري. وقلت: القبائل والطوائف بديل أحزاب الطبقة.

***

عينا سميرة

سرت الوحشة في عينيها مثل إشاعة. نحن مجتمع

الإشاعة.

***

تقرير

سميرة قالت إن سمير لم يكن يرى والده. إنه كان يزوره في السجن أيام العيد. أفراد «عصابة» سمير يهرولون الى سينما الخيام لمشاهدة فيلم «بورسعيد» بطولة فريد شوقي، وهو يجلس مع والده في معتقل «العبدلي» ويسأل كل دقيقة عن الساعة. تجتاحه رغبة ملحة في حضور الفيلم. حيث يجتمع مئات المتفرجين ويتواصلون عبر لغة غريبة مبهمة وسط عتمة هشة.

الضحك مُعْدٍ. يسري من مُشاهد الى آخر مثل وباء.

والنحيب كذلك.. ناهيك عن الإحساس العارم المشترك الخفي بلغة الجنس المتبادلة الجماعية المبهمة.

***

ابن سمير يتمشى في الشارع وهو يضع «الهدفونز» على أذنيه. إنه يصغي الى جيمي هندركس. لكنه لا يسمع ولا يرى ما يحيط به: انه عصر العزلة! و«رانية» ابنة سمير الصغرى ترفع الحواجز بينها وبين عالم الكبار كي تتحاشى فضول التواصل البغيض.

وظل جبل اللويبدة يتأبىَّ على العصر الجديد. فالبقال هو مختار الحارة. وسيدات الحارة يجتمعن بين الحين والآخر.

***

تقرير

سـميرة تحـرض أولاد سـمير الصغار. تجمعهم (ومعهم رانية الصـغيرة التي تذكرها بطفولتها) تهمس بكيد:

ـ اضـغطوا على أبيكم كي لا يشرب.

وسـمير طار عـقله حين شكلوا الوزارة الجـديدة. بلغـه أن رئيس الحكومـة راعى المسألة الجـغرافية والجهوية والعشائرية.

عمان .. طبعـاً .. تبـقى خـارج الجـغـرافـيـا والعـشيرة والجهوية.

ولا محـلّ لهـا من إعـراب التـشكيل الوزاري. لأن عمان لا أصل لها، إنها مدينة القومية العربية الفاضلة!

صـاحب البـيت، ابن البـاشا، السابق، استنكر التشكيل الوزاري. قال:

ـ إن قـريتـه لم تؤخـذ بعين الاعـتبـار. وإن رئيس الحكومة وثـلاثة وزراء من منطقـة واحـدة.. وهذا لا يجوز.

***

تقرير

الأسـتـاذ اسـتـجار بعمان. كان، نائب الرئيس عبدالناصر أيام الوحـدة، مـرعـوباً مـدمراً. سأله صديق (شق طريقه الى شـقـتـه بصـعـوبة) عن الماضي والحاضر والمستقبل.. وقال إنه يعـد رسـالة مـاجستير في الجامعة الأردنية عن الحركة القومية. وأعـرب بوضـوح أنه يرغب في سماع شـهـادة «الأستاذ». فتح «الأسـتـاذ» فـمـه لـيـتـكـلـم، وأينعت نظرات الشك والريبـة

والخوف في عينيه. قال إنه عاجز عن الكلام لأسباب أمنية. فهو لا يرغب في إحراج الحكومة الأردنية من جهة، ولا يرغب في إثارة واستفزاز أنظمة مجاورة. قال باقتضاب وهو يواري هيكله العظمي المجلل ببشرة رهيفة رقيقة:

ـ لا أعرف من هي الجهة التي تبحث عني لإسكاتي.. أو الانتقام من أولادي.

كان في التسعين، ويحب الحياة. لا يرغب في منح جيلنا شهادة قد تؤرّق التاريخ الرسمي المزور.

كان يتكلم بأناة ومشقّة. قال إنه يرغب في قضاء آخر سنتين من عمره في سكينة واعتكاف.

اجتاحني إحساس مثل حد النصل.. بالإحباط. عيناه أيضاً كانتا كتومتين. ثم أفصحتا فجأة. أبرقتا لتقولا: من حق الإنسان أن يتقاعد وهو على أبواب التسعين. دون أن يدفع الثمن مجدداً.

***

تقرير

أولاد سمير أعلنوا أنهم سيضربون عن الطعام إذا ظل يعاقر الخمر. توسلت إليه ابنته الكبرى أن يحضر حفل تخرجها. فرد بسلبية جامحة. قال إنه لا يستطيع. وابنته الكبرى لا تفهم. وابنته الصغرى ترفض سلطة الكبار كما قالت مدرّستها. كان يشعر بالذنب ويدرك أنه يدفع أسرته الى الهاوية. لكنه يعترف بعجزه عن تجاوز الخمسينات وأيام عبدالناصر وأم كلثوم، وأحمد سعيد وفايدة كامل

والزمـالك، والخطاب السياسي الذي اجتاح الشارع أيامها.

عليـه واجبـات اجـتمـاعـيـة. حضور عرس أو مأتم أو ما شـابـه ذلـك، وهـو يـلـوذ بالبـيت ويرفض الاعتراف بالعصر الحديث، وينكمش مثل سلحفاة.

***

شظية

عـام بـكـامـله. لا أكـاد أرى أحـداً. أنظف الدار، أرش الحـديقـة بالماء. أطوف بشـوارع جبل اللويبدة العجوز. أراقب الوجـوه الخـريفـيـة. أتجـاذب أطراف الحـديث مع سـميرة من خلف الجـدار. أشـاهد أفـلام الفـيـديو وأطالع روايات «عبير» ومجلات تافهة.

أذهب احـيانـاً الى رابطة الكتاب الأردنيين فلا أعثر إلاّ على سكرتير الرابطة. يطرد الذباب ويتـفـصد عرقاً في لهيب الجو. تـنـفـرج أسـاريره حين يراني. يقطع الصـمت بكلماته الحـادة المعتذرة:

ـ كـانت للرابطة أيام ذهبـيـة قـبل الديمـقـراطيـة. كـانوا يجتمعون كلهم هنا أيام الأحكام العرفية.

ثـمـة رياح باطنيـة، لا تهب ولا تندفع. تتـوارى في جنين الحـاضر الخـفي، وتتهيأ لاقتناص اللحظة الحرجة. أيام أشبه مـا تكون بهوة سـحيقة تفغر فاهها لابتلاعي، هوة سحيقة من الفـراغ. أصـبح الوقت عـدوجي الأخطر. صـار الكسل عبئاً علي. تدريجيـاً (لا أدري مـتي بالتحديد) بدأت فكرة الأنتحار تسـتحوذ على عقلي. ادركت أنني إن لم أقتل الوقت.. قتلني.

مضيت الى عيادة صديقي الحميم الذي ناهز الثمانين، اقصد الدكتور عبدالرحمن. كان في عيادته المهجورة، يرتدي سترة الطبيب البيضاء.. ويقرأ الصحف وهو يعلم أن أحداً لن يمر به. لا زائر ولا مريض. لكنه يصّر على الدخول في سترة الطبيب البيضاء كل صباح في تمام الساعة التاسعة، ويهبط على درج بيته الى العيادة التي تحتل الطابق الأول.
اعترفت له بأنني أتعاطى أقراص المنوم.. كي أقتل الوقت؟ قلت: إن الوقت يقتلني. وإنني أحاربه بسلاح النوم. وفي المنام أرى الكوابيس الكون. على كف عفريت لا يتقن المصافحة. طائرة تقلني في الفضاء فيتعطل محركها وتضطر الى الهبوط في مطار عاصمة حزبي القديم. وأراني وقد اختطفني رفاقي القدماء وانتزعوني من الطائرة مثل انتزاع ريشة من جسد طائر.. وأراني على الصليب وهم يقطعون مني كل بنان ببهجة جهنمية، وأشعر في تلك اللحظة أنني أرغب في زيارة المرحاض. لكنني معلق على الصليب، فأبول على عقبي.

وأحياناً أصحو فاكتشف أن الفراش مبلل ببول التوتر وعرق الفزع. واعترفت له يائساً أنني سوف أقتني مسدساً. وأن الكآبة تأكلني.

وضع الصحف جانباً. قال: إن مقالات د. فهد الفانك مثيرة للجدل، وإنه الوحيد الذي لا يكتب الإنشاء ولا يشتم الاستعمار ولا يستخدم كليشيهات معروفة لا تضيف شيئاً. وقال: إنه يتصل بكتّاب الزوايا يومياً. قال وهو يتكىء على مرفقيه:

ـ هذه شغلتي وعملتي. آتصل بهذا الكاتب لأقول له إنني أشد على يديه. واتصل بذاك لانتقد مقالته.. وهكذا

يمضي نصف النهار.

قال وهو يتململ على مقعده: إن زوجته تطالبه بخط هاتفي آخر، لأنه يشغل الخط الوحيد ساعات طوالاً وهو يتحدث الى الصحفيين.

ثم أخذ رأسه بين راحتيه ودفن وجهه فيهما. اعتقدت ـ لوهلة ـ أنه نسي «اعترافاتي». كانت شعشعة الشمس تحاول عبثاً اقتحام الغرفة. ثم اكتفتْ بتسلّل خجول متعايشةً مع ظلام كئيب. هكذا هي بيوت جبل اللويبدة القديمة. شبابيك ضيقة ونور خافت ضئيل مقتر.

التزمت الصمت وطردت ذبابة. اعتقدت أنه نام. توقعت شخيره ينطلق من فمه. لكن الكلمات تدفقت من بين شفتيه فارتطمت براحتي كفّيه، نقرتْ على طبلة أذني وتناثرت في فضاء الغرفة. سأل وهو يخفي وجهه:

ـ ألا توجد في حياتك امرأة؟

لم ينحّ راحتيه عن وجهه. لم أتمكن من رؤية عينيه. غمرني شعور غريب بالراحة. عيناه لا تراقبانني. حكيت له عن سميرة. قلت: إنها حلوة مثل كعك العيد. لكنها ترغب في الهجرة الى أميركا مهما كان الثمن.

كان لا بد أن أعترف لشخصٍ ما. والدكتور عبدالرحمن هو الشخص الوحيد الذي أثق به. فهو البطل المنسي الشبيه ببئر تختزن الأسرار. أنبأته بأنها مثل ابنتي رانية تفضل التواصل عبر اليدين، لا لغة اللسان. نحى راحتيه عن وجهه. لكنه أشاح عن وجهي. كأنه لا يرغب في إحراجي. قال: إن الغبار متراكم على مكتبه. وإن الخادمة السيرلانكية لا تقوم بواجبها. طرد ذبابة حامت حول رأسه، وحدق الى النافذة التي تطل على أشجار سرو غبراء. قال: إن اللون

الأخضر في بلادنا يختلف عن اللون الأخضر في أوروبا. قال وهو يحاول اغتيال الذبابة بتصفيق الكفين (دون جدوى): إن اللون الأخضر في بلادنا ممزوج بالغبار الكالح. لعن الله الصحراء. ثم التفت اليَّ، وسلط عينيه على عيني فأعرضت وأشحت. قال بحزم:

ـ صاحبك الأستاذ بهجت يقتل الوقت في مطبعته وفي خوض غمار الحياة السياسية العامة رغم أنه تجاوز الثمانين. يهبط من الطابق الرابع في بناية هرمة تقع في جبل اللويبدة، في شارع سينما الخيام. ويمضي الى المطبعة الواقعة في مطلع شارع وادي صقرة أمام مدرسة سمير الرفاعي. ثم يعود ماشياً الى شقته المتواضعة ويرتقي الدرج الصعب الى الطابق الرابع.. وما زال يناضل بعد عشر إصابات في جسده.

قاطعته بصوت اليائس، وأنا أتحرق الى إشعال سيجارة (ممنوع التدخين في حضور الدكتور لأسباب تتعلق بوضعه الصحي):

ـ الأستاذ بهجت صديقي الحميم. لكنه يمتلك جهازاً عصبياً جباراً.. أما أنا فجهازي العصبي رهيف.

أطلق الدكتور زفرة ارتمت نحو النافذة الضيقة واخترقتها الى المدى البعيد. قال بحزم واقتضاب:

ـ ينبغي أن تنضم الى حزبٍ ما. فالحياة العامة تقتل العزلة والكآبة. ينبغي مغادرة الساقية، والخوض في البحر المتلاطم المفعم بالمفاجآت.

كان وجهه شاحباً، وصحته العليلة تحجّم حركته. بدا لي جسده ذابلاً ميتاً، لكن ضوء الحياة الساطع ينبثق من عينيه. ذكرني بالأستاذ أكرم. كان قوة جبارة مبهمة، سحبت الحياة من أطراف جسده، حصرت في العينين الساطعتين بنور

غريب أشبه ما يكون بالمعجزة.

نهض بتثاقل من وراء مكتبه. قال إنه سيذهب الى المرحاض. وقال: إن الناس شطبوه من ذاكرتهم. وإنه يتطلع الى الموت دون خوف، ولكن بأسف. فقد توقع أن تتحقق أحلامه في الثمانينات. فاذا بكل شيء ينهار. من المنظومة الاشتراكية الى كارثة الخليج. تناهى صوت «فرفرته» الى مسمعي، قال وهو يسحب السيفون: إن الخوض في الحياة العامة ليس أمراً يسيراً. وإنني مرهف، وقد لا أُطيق محاولات اغتيال الشخصية والضرب تحت الحزام في غاب الحياة العامة.

في تلك اللحظة تذكرت رفيقي السابق الذي تخرج من لندن كمهندس ميكانيكي. وعاد الى بيادر وادي السير ففتح «كراجاً» لتصليح السيارات. كان هو نفسه يعمل في فك وتركيب أدوات السيارات، علماً بأن «كراجه» مزدحم بعمال متخصصين. سألته عن السر مرة، فقال:

ـ أريد أن أرهق نفسي بالعمل. من السابعة صباحاً حتى التاسعة مساء، كي لا أفكر أو أتأمل. أريد أن أثمل بعصارة الإرهاق.

كان وجهه ملطخاً بالزيت والألوان السوداء. اندس تحت سيارة. لم أعد أرى منه سوى حذاء أغبر. قال: إنه يقاطع العالم الخارجي والماضي الحزبي والمأساوي، بالاختفاء تحت السيارات، والاستحمام بقاذوراتها. حرك قدميه نحو اليمين ونحو الشمال. لم يكن إنساناً بالنسبة لي. كان مجرد حذاء أغبر. قال:

ـ ينبغي أن نصبح مدمني عمل أو شغل أو وظيفة؛ لكي نمتنع عن التأمل والتذكر. فالتفكير بما أنجزه حزبنا يدفع

الى الجنون. الإرهاق الجسدي العضلي الحيواني.. هو الحل يا رفيق.

وطلب مني - بصوت ينطلق من تحت سيارة - أن لا أذكره بأيام زمان. صاح من بين عجلات السيارة (فخرج صوته من مكان خفي يتلوى مثل ثعبان هندي) قال:

- بعد انفصالي عن الحزب نتيجة غياب الديمقراطية.. بات جسد السيارة ملاذي الوحيد. أضاجع هذا الجسد البهي الذي تفوح منه رائحة البنزين المثيرة، وأصغي الى صوت محركه العذب، وألمس أعضاءه، أداعبها، أعبث بها دون تردد وأمام المارة. إنها عشيقتي، درعي التي أصدّ بها وقت الفراغ الفائض بالذكريات والتأمل، ثم برز رأسه من تحت مؤخرة السيارة ملطخاً بالدهون السوداء. قال وهو يتجه الى سيارة أخرى:

- ينبغي أن تبحث عن عمل يستوعب كل هذه المرارة المحتقنة في مساماتنا وأعماقنا ويستنزفها. تماماً مثل غرف البخار في النوادي الرياضية الفخمة، حيث تستلّ الحرارة العرق من المسام. ثم نغطس في ماء بارد. ونشعر بكمال النشوة..

وشاء القدر أن يُعرض عليّ العمل كرئيس تحرير لنشرة تصدرها مؤسسة شبه حكومية. بعد منعي من العمل في دوائر الحكومة لفترة طويلة. فكرت بأن العمل سوف يقتل الوقت. لكنه كان يقتل الوقت حتى الثانية ظهراً. وتساءلت:

- ماذا أفعل من الثانية ظهراً حتى الفجر (موعد نومي)؟.. ثم هل سيتهمني أحد بأنني أمهد لعلاقة إيجابية بين السلطة والمثقف؟ لا.. وماذا عن الديمقراطية؟ جانبني

النوم، وظللت أتقلب على الفراش حتى الصباح .

***

شظية

سمعت طرقات قوية على الباب. ترددت. تلكأت. لم يطرق بابي أحد منذ شهر. باستثناء جابي الكهرباء. قمت متثاقلاً، كنت أشاهد فيلم فيديو سخيفاً. فتحت الباب بأناة. اندفع أربعة من أصدقائي ورفاقي القدامى مثل زوبعة. هجموا عليَّ. انتزع أحدهم سترة منامتي. هرع الثاني الى دولاب ملابسي وعاد يحمل قميصاً وبنطالاً.

أعترف أن ردود فعلي كانت بطيئة الى درجة انني لم استيقظ من ليل دهشتي وذهولي إلاّ بعد أن انتزع الأربعة سترة منامتي وسروالها، وأخذوا يدسّون ساقي في البنطال وذراعي في القميص. كان الوضع كله مفاجئاً خاطفاً، أشبه ما يكون بعملية اختطاف سريعة.

اعترضت وهم يدعونني الى الخارج. قلت بصوت مكتوم:

ـ ما الذي يحدث لي؟ ماذا تريدون مني؟

قال احدهم ـ وهو يدفعني دفعاً الى السيارة ويضغط براحته على رأسي كي أنحني:

ـ لن نترك لك ترف الانتحار.

قال آخر:

ـ اتصل الدكتور عبدالرحمن بنا، وقال إنك على بعد ومضة من مصير تيسير سبول.

دفعوني الى المقعد الخلفي، وحاذاني اثنان منهم. جلس أحدهما الى يميني والآخر الى يساري. واتخذ السائق مكانه بسرعة الضوء خلف المقود، بينما جلس الآخر الى جانبه، وانطلقت السيارة بسرعة مذهلة.

صرخت خائفاً:

- إلى أين؟

قال السائق:

- الى مؤتمر الحزب الجديد.

***

شظية

شعرها طويل ونفسها قصير. عمان تعجُّ بمشاريع الأحزاب. انتمى زوجها الى حزبٍ يزعم أنه ليبرالي. فلحقت به وانتمت.

المرأة ذات الشعر الطويل والنفس القصير ملّت الحزب. زوجها أصبح عضواً متفرغاً في القيادة. أصبح العمل الحزبي مهنته. عنَّ للمرأة ذات الشعر الطويل كالحياة أن تترك الحزب وتجرّب حزباً آخر. قالت وهي تتثاءب: إن معظم الأحزاب ذات برامج متشابهة. قالت: إن صديقتها في حزب تقول إنه مختلف. المرأة ذات الشعر الطويل كالحياة قالت: إن زوجها تقدّمي، وسوف يتفهّم. الزوج التزم الصمت. لم يعترض ولم يوافق. كان يشاركها العمل في شؤون البيت. الرجل درس في فرنسا، وكان يدخن «جيتان» ويقرأ عن حقوق

الانسـان . المرأة هجـرت حزب زوجها، ولم تهجر زوجها.

ظلّت تحبّه. قـال ـ كأنه يواسي نفسه ـ : إنها رحلت إلى حـزب آخـر، لا إلى حـبيب آخر. لكن حزب الزوج لم يفهم هذه الخيـانة الزوجيـة الحـزبية المزدوجة. الحزب هدد الزوج، وأمـره بإعـادة الزوجـة الى بيت الطاعة الحزبية. قالت القيادة: ان هجـرة الزوجـة فـضيـحة سياسية. ولم يرضخ الزوج الذي يدخن سـجائر فـرنسية؛ لأنه لم يفهم. بغتة صدر قرار بقطع رزقـه الحـزبي؛ بحـجـة السـعي الى تقليص الإنفـاق الحـزبي. الـزوج قـال: إن الحـزب ديـمـقـراطـي، وإن المناخ في الأردن أصبح ديمقراطياً.

لـكـن الـرفـاق أو الإخـوة أصروا على أن المسألة مـاليـة. أحـدهـم خـرج عـن طـوره واعترف بأن إلغـاء «تفـرغ» الزوج يعـود الى خيانة زوجته.

كـانا يتناولان طعـام العـشـاء في صمت. تناول لقمة، ثم أبعـد الصـحن، وأشـعل سيجارة جيتان. قال لها دون ان تنم لهجته على توسّل :

ـ عودي إليّ.

تـوقـفـت عـن المـضـغ. لم تـفـهـم. حـدقت اليـه بعـينين واسـعتين. قالت إنها لا تفهم، وإنها معه، وإنها لم تغادره كي تعـود اليـه. نفث دخـان سيجارته في الفضـاء. فتح فمه ليقول : عـودي إليّ . . إي إلى حـزبي. لـكـنـه لم يقل. نهض قـائماً وحمل صـحنه الى المطبخ. جاء صوته من المطبخ مختلطاً بصوت غـسيل الصحون . قال إنه بات عاطلاً عن العمل. لم تفهم. صوته طرق مسامعها لكن مفرداته ظلت تنقر على طبلة أذنها، تصدر أصواتاً لا دلالات لها.

الحسـاء سـاخن. نفـخت عليـه. توقـعت أن يكرر ما لم

تفهمه. لكن الصمت امتد بكل ثقله بين غرفة الطعام والمطبخ. بغتة سمعت صوت غسل الأواني. نهضت ومشت في ردهة الصمت الظليل الشاحب. وقفت خلفه، طوقته بذراعيها، فلم يلتفت. كان منهمكاً بغسل أواني المطبخ. الأواني نظيفة. عيناه عكرتان. قال ـ دون أن يلتفت ـ إنه أصبح بلا راتب. ارتخت ذراعاها، لم تدر ماذا تفعل بهما. أين تذهب بهاتين اليدين الصغيرتين. بذهول سألته إن كان قد ترك الحزب. التفت اليها، حدق اليها بعينين شعّ منهما لهب ساطع. قال إنها هي التي تركت الحزب. لم تفهم، فتحت فمها وأغمضت عينيها. قال: إن الموقف حرج. قال إنه ديمقراطي ومتحضر. وإنه لن يمنعها من الانصراف عن الحزب. قال:

ـ ولكن كوني ربة بيت .. لا تنضمي الى حزب آخر.

تضرج وجهها. فهمت؛ بوسعها أن تترك الحزب وتنضم الى البيت. وحرام أن تترك الحزب وتنضم الى حزب آخر. قالت بتحدٍ:

ـ اتركْ حزبك وتعال الى حزبي الجديد.

ترك المطبخ، ودلف الى الحمام. غسل يديه وجففهما. وقال إنه مؤمن بحزبه. كان العرق يتصبب من أقطار جسمه كلها، سقطت قطرة عرق من جبينه واستقرت على ذقنه. كانت تتأمله بصمت. قالت:

ـ أنت بحاجة الى حمام.

جحظت عيناه. سألها:

ـ هل تتقززين من رائحتي؟

تأملت ملابسه الخارجية، فلاحظت أنها ناصعة أنيقة. لكن العرق كان يتصبب في الداخل.

شظية

رمقني سمير بنظرة زائفة . قال :

- هل تعلم متى شاهدت التلفزيون أوّلَ مرة؟

كانت نظرته تائهة. قال إن والده اصطحبه لزيارة إحدى خالاته.

توقف سمير عن الكلام فجأة ، ثم رماني بنظرته الذاوية المتسائلة وغمغم بصوت ينم على يأس :

- ماذا كنت أقول ؟

بدا شارد اللبّ، غافلاً عن كل أمره. لاحت في عينيه أمارات الحرج. قلت إنه كان يتحدث عن زيارة لخالته في دمشق. تلفت يمنة ويسرة بحذر وريبة. ثم قال وكأنه تمكن من وصل ما انقطع من حبال أفكاره :

- آه . . في تلك الأيام كان العالم متوازناً مرتباً. ثمة معسكر اشتراكي هنا.

وأشار بأصبعه الى الركن الشمالي للغرفة. ثم أضاف :

- ومعسكر رأسمالي غربي هناك (وأشار الى مائدة الطعام) وعالم ثالث هنالك (وأشار الى مذياع قديم ورثه عن جده).

كان وجهه شاحباً حين قطع الحديث، وحدق اليَّ بعينين متضرعتين متوسلتين. بغتة برقت عيناه وتأججتا. قال بصوت ينم على ارتباك:

- هل كنت أحدثك عن تلفزيون خالتي في الشام؟

أومأت بالايجاب. وأضفت أنه انتقل بعد ذلك الى الحديث عن المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي والعالم الثالث. . في مقدمة للحديث عن النظام العالمي الجديد - كما

يبدو. أبرقت عيناه بشعاع جهنمي ساطع. قال بصوت خفيض:

ـ نعم .. سقوط المعسكر الاشتراكي.. وحرب الخليج، وغزو الصحون اللاقطة لبيوتنا.. هذا كله أدى .. الى .. أعني ..

انقطع كلامه بغتة. عيناه رائغتان، يدور محجراهما دون توقف. انقبض وجهه ثم انبسط. قال :

ـ أين كنا؟

ذكّرته مدارياً ارتباكي بما كان يقول. امتقع وجهه. أخذه بين يديه. فتح فمه ليقول ، لكنه لم ينبس. مرت دقائق ثقيلة وئيدة، ثم قال :

ـ يبدو أنني لم أعد أجمّع .. أليس كذلك؟

قلت بتردد مغالباً حزني:

ـ يبدو لي أنك فعلاً تعاني من مشكلة ما.

اغرورقت عيناه بالدموع. اعترف لي انه حين يستقل سيارته ليمضي الى مكان محدد، ينسى في منتصف الطريق الهدف الذي يسعى اليه. بل والمكان الذي هو فيه. يوقف سيارته الى جانب الطريق. بعد دقيقتين أو ثلاث، يعود اليه رشده. يتعرف ملامح المكان الذي توقف فيه. لكنه ينسى المكان المنشود. فيقفل راجعاً الى البيت ليسأل سميرة عن المكان الذي انطلق أصلاً ليزوره.

سألته بلهجة تنم على تعاطف:

ـ لماذا لا تراجع طبيب أعصاب؟

تردد الجواب. تلكأ. ثم اعترف لي أنه يتردد على طبيب أعصاب منذ شهر.. ولكن دون جدوى.

أي أمراض جديدة وشرسة يقذفنا بها النظام العالمي

الجديد؟ أليس النسيان وانقطاع تيار الذاكرة أحد أسلحة الحفاظ على الذات؟

***

فسيفساء

حبال الفكر تنقطع، ويتساقط غسيل الذكريات في مدار سحيق. الطبيب عاجز عن الوقوف على هذه الطلاسم الملغزة. يعزو الأمر للإرهاق، أو لمرض خطير في الدماغ. فحص الدماغ، النتائج إيجابية. إنني بعيد ناء، والطلاسم الملغزة والأشباح والأطياف التي «شلحت» ملامحها دانية حميمة. حين اقتربت من رانية الصغيرة انتفضت نفضة الحمّى. وانثنت تصوب فيَّ نظرة الحردان وتصعدها.

***

شظية

قالت سميرة: إن تجاربي الحزبية السابقة أحبطتني بما فيه الكفاية. أنت لن تصمد أمام أحباط جديد.

ما كنت أرى وجهها. صوتي يلمس صوتها بأصابع خفية. ثم يمس ملامح وجهها الخفية. صوتي يصادر صوتها ويطير الى الذاكرة والمخيلة ويتحسس جسدها الباذخ. وهي تختفي وراء سماعة الهاتف السوداء.

كنت أشم رائحتها العذبة عبر صوتها. إنها تمسد شعرها الأسود الطويل كالحياة. إنها تضحك ولا تكتم ضحكتها..

لأنني لا أراها. تنتشر بشعرها المبلل الطويل في حيز مضاد للاختناق. . تتنفس، دون أن تحسب إنفاسها.

قلت: إن الخروج من عزلتي يعني الخلاص من وساوس الانتحار. ولا بديل للعزلة سوى قذف النفس في خضم الحياة العامة. وهذا لن يتم الا اذا انضممت لحزب ما.

أطلقت ضحكة غير مكتومة. ضحكة حرة برية. قالت باستهجان:

ـ تنضم الى الحزب لتقتل الوقت؟

استرخيت في مجلسي. رغبة عارمة تستحوذ علي: أريد أن أراها. اعترفت بأنني حيوان سياسي. وأنني أتطلع الى الانتقال من اجتماع الى ندوة الى دار عزاء. . وهذا ما تقتضيه الحياة الحزبية. واعترفت بأنني ما عدت قادراً على الوقوف في منزلة الوحشة بعيداً عن الناس. وعمان بلا بحر محلي، ولا مقهى للمثقفين، حتى الرابطة. . مقفرة.

أنضم الى الحزب كي أغتال الوقت. نعم. اعترفت لها بخجل. ثم استدركت، قلت: إنني سندباد، ملّ اليابسة والتأمل، وعاوده الشعور الملحّ الى الخوض في بحار مجهولة؛ للوقوف على أسرار جزر مجهولة مكتنزة بألغاز باطنية. ومحارب محترف استراح حتى ملّ كسله وقرّ قراره على العودة الى الميدان.

***

خبر

دعونا الأحزاب كلها لعقد اجتماع في مقر حزبنا؛ لمناقشة احتمال صدور قانون جديد للانتخابات في أثناء «عطلة»

النواب. صاحب حزب رأسمالي قال: إن مقركم ضيق، وإن القصر الذي أسكنه يتسع لكل الأحزاب والنواب.

وهكذا لطش المبادرة منا. حجته كانت أقوى من حجتنا؛ فمكتبنا مكتب حزب «كحيان». وقد لا تتسع صالته فعلاً لاستقبال أمناء الأحزاب وبعض النواب!

***

شظية

رنّت ضحكة سميرة وهي تشبك أصابعها بأصابعي، وهمست:

ـ أنتِ مدمن سياسة.

صحّحت باعتزاز:

ـ مدمن نضال.

***

فسيفساء

أي خيط خفي يربط بين ابنتي رانية وسميرة؟ رانية لا تتواصل معي إلاّ عبر اللعب. ألعاب تعتمد على حركة اليد والأصابع مثل المكعبات «البزل» والدومينو. (رغم أنها لا تتقن معظمها، الا ان ملامحها تشي، في أثناء اللعب الصامت، بأنها مهتمة جداً ومستغرقة بلغة التواصل عبر الحركة والأصابع.. لا عبر اللغة المحكية المقموعة).

***

شظية

سميرة توصد أبواب جسدها ومنافذه دوني. تتوجس خيفة من لغة العيون ولغة اللسان. تشيح بعينيها دائماً. كأنها تتحاشى نظراتي وتلوذ بنظراتها الى مدى بعيد يجيرها. ويختنق صوتها عادة أو يحتبس كاحتباس المطر في الصيف. تخاطبني عبر الأصابع. تتلمس وجهي كأنما تمس هبّة ريح عابرة. تومىء لي وتستدنيني. تترك أصابعي تعبث بمغاليق جسدها، لكن تصر بعناد طفلة صغيرة نمرودة حردانة على أن لا تسلمني مفاتيح مزاليجها. حيث الكهوف السحرية، والسراديب الفاتنة، والمتاهات المتقدة بلهيب الرغائب. تقول كلمة أو كلمتين، ثم تبادلني لغة الأيدي. تسيطر على يدي. تمررهما على عتبات كنزها الخفية، اصابعي تقف بأبواب الجسد العجائبي.. لكنها لا تطل ولا تدخل.

***

شظية

مثل هرة تستحي من خيالها. أدنو منها فتنكمش على نفسها. كأنها تخجل من وجودها على هذا الكوكب. أتحسس يدها كي أتأكد من أنها ليست شبحاً. صامتة مثل بئر سحيقة تزدحم في قاعها المظلم أفاعي الأسرار. بدت مثل كهف عتيق حفر الصيادون المتوحشون على جدرانه رموزاً غامضة ذات دلالات عميقة فصيحة.

تنطوي سميرة على ذاتها كأنها ما زالت في تلك الدار

الضيقة المظلمة مع أبيها المتزمت المتعصب. نفوا والدها مرة الى قرية نائية في الجنوب.

بكت. قالت خذوني معه. لا شجرة لي إلاّ إياه. (لم يكن سمير سكيراً أيامها). . وأمها مصابة بمرض خبيث.

كانت صغيرة مثل برعم. وها هي الآن معي، كأنها جزء من مقتنياتي. لا. . لمقتنياتي وجود محسوس ملموس. وهي ليست سوى طيف عصي مستحيل يقول للعالم:

ـ انسوني. . جسدي قيد إقامة جبرية.

دعوتها الى تناول الطعام في مطعم «روميرو» في جبل عمان. لم تقل إنها ترفض دعوتي. إنها لا ترفض. قالت ارغب في مشاهدة فيلم سينمائي.

مضينا الى سينما فيلادلفيا الفخمة دون أن نعرف اسم الفيلم.

لم تحدق في وجهي أبداً. تتهرب من مواجهة العيون.

تأخذ وجهها بين يديها، تختفي خلفهما، وترسل خصلات شعرها حول عينيها. . كأنما تضع قناعاً. لا تحكي معي وجهاً لوجه. وتصاب بإسهال كلام على الهاتف. الهاتف يستر الوجه ويجلل العينين، ولا يعري سوى الصوت. أقول لها إنني سأنضم الى حزب جديد فتيّ أسسه أصدقائي. تكتم ضحكة خجولة براحة يدها. ولا تعلق. تتسلل أصابعي الى أصابعها في عتمة الصالة شبه المقفرة. أصابعنا تثرثر وتثرثر.

أعرف أنها ستتصل بعد أن ننفصل، وستعلق عبر الهاتف على قراري السياسي الخطير. شبكت أصابعها المرتعشة ورمت نظراتها الى الشاشة. كنت أعرف أنها لا تتابع الفيلم. وانها تفكر في الرجل الذي تزوجها شهراً ثم طلقها. . بعد انهيار المعسكر الاشتراكي!

خلع عـقله كما يخلع المرء قـبعته، وظل يكرر كلمة واحدة : «مش مـعـقـول» أضاف حفرة الى الحفر العميقة التي مزقت أعماق كـهـفها الداخلي. كانت مثل سلحفاة تطل بحذر شديد الى العـالم الخـارجي ثم سرعـان مـا تنسل الى طمأنينة القـوقعة الغامضة البينة.

جلسنا على مقعد خشبي طويل في متنزه جبل اللويبدة.

لاحظت أنها تسترق التـهـام قطع السـاندويش مـسـارقة. أدركت أنها لا ترغب في أن يراقـبـهـا أحـد - حـتى أنا - وهي تأكل. كأنها ترتكب جـريمة. كنت أتحرّق لمعرفة رأيها بقراري الانـضمام الى الحـزب الجـديـد وخـروجي من قـمـقم عـزلتي. لكنهـا لن تتكلم وجهاً لوجه. وقفت منتصباً. قلت:

- دعينا نفترق كي نتصل هاتفياً.

لم تقل لا. ابتـسـمت ابتـسـامة مرتبكة. سألتها إن كانت تـرغـب في «سـانـدويـش» آخـر قـبل الافتراق. مـالت نحـو ركـبـتـيـهـا. انحنى ظهـرها. اخـتـفى وجـهها. انطلق صوتها الخـفـيـض مـن مـكـان مجهـول. قـالت إنها لا ترغب في أي شيء. لا تـرغب في الشـاورمـا، ولا ترغب في أي شيء آخـر. سألتها بخبث:

- ألا ترغبين في الحياة أو الحب؟

هـزت رأسـهـا، فـلـم أدرك إن كـانـت تـعني نعم أم لا، مـضت لوجـهـهـا واختـفت وهي تغمغم أنها تحتاج الى منديل ورقي.

***

شظية

لم أرتبك حين دلفت الى «مكتب» الدكتور عثمان الفخم. والمكتب الذي أقصده هو عمارة فاخرة تزخر بالمهندسين والسكرتيرات والمراسلين.

أذكر كل ذلك. كان مركز الشركة في بيروت، وفروعها العملاقة تمتد كالأخطبوط من لندن الى القاهرة الى عمان الى الرياض الى معظم عواصم الدنيا.

كان «الدكتور» متعصباً لقريته الأردنية الأصلية رغم امتداده المتعدد الجنسيات. استقبلتني سكرتيرته الباذخة وأومأت لي أن أدخل.. فدخلت. صافحني بحرارة وداعبني قائلاً:

ـ أهلاً بالرفيق السابق.

وقبل أن أتخذ مجلسي جاءت فتاة أخرى تحمل فنجان القهوة. أدركت أن الدكتور لن يمنحني وقتاً مسترخياً. فالدقيقة في حياته ذات ثمن باهظ. إنه شخص يتمنى أن يتحول النهار الى ثمانين ساعة.

كنت مرتبكاً. قلت بتلعثم: إن أصدقاء لي ـ وعلى رأسهم الأستاذ بشارة ـ يرغبون في إقامة مركز صحي في الجبل قرب «بحمدون» وإنهم بحاجة ماسة الى تبرع الدكتور. رن الهاتف. كان العرق يتفصد من جميع أنحاء جسدي. اعتقدت أن جهاز التدفئة شغال رغم الحر الثقيل. أعاد الدكتور سماعة الهاتف الى مكانها.. وقال بتهذيب شديد:

ـ أوامرك.. يا ابن العم.

حكيت له بلسان متلعثم عن حاجة «الشباب» الى تبرع

لإقـامـة مـركز صحي في الجبل النائي. حدق الى عيني بنظرة ثابتـة ثم رفع رسـغه وحدق الى الساعة، فأدركت أنه مشغول. بـغـتـة انحنى من وراء مكتبـه نحـوي وسأل عن «الشـبـاب» قلت:

ـ أقصد جماعة بشارة.

عـاد فـاسـتـوى في مـقـعـده الوثير. حك رأسـه بإصـبـعه مـتأملاً. ثم أشرق نور في عينيه وسألني سؤالاً مفاجئاً. قال:

ـ هل يملك بشارة هذا مستقبلاً سياسياً؟

لم أفـهـم. جـفـفـت عـرقي بباطن يدي. قلت: إنه مطرود من الحزب القديم، لكنه شاب يمتلك صفات قيادية.

سـارع الـدكـتـور بـرفـع سماعـة الهاتف واتصل بشـخص غـامض. قال بصوت رصين:

ـ هل تعرف شخصاً اسمه بشارة «م»؟

ـ ....

ـ هل يتمتع بمستقبل سياسي؟

ـ ...

ـ عـظـيـم. مـا هي المواقع التي يمكن أن يحتلهـا.. وهل سيحتلها قريباً؟

ـ ... آه. بعد عشر سنوات.. وزير أو نائب. عظيم.

أعاد السماعة الى مكانها وقال دون أن يلتفت:

ـ دعه يمر بي غداً صباحاً.

(مـلاحـظـة: بعـد عشرة اعـوام اصـبـح بشـارة نائبـاً، ثم وزيراً. فعلاً).

أمـثـال الدكتور لا يراهنون إلا على الخيل الرابحة أو ذات الحظ في الربح على الأقل. ثم يقـدمون «الفاتورة» باعتداد.

***

شظية

يحتسي العرق من فم الزجاجة، يقبّلها. بلا ثلج ولا ماء. ويقود السيارة راجعاً الى شقته. يدس خطابات عبدالناصر النارية في جهاز التسجيل. ينتحب. يطلق ضحكة مجلجة. يدور بسيارته الصدئة الصغيرة القديمة في شوارع عمان. يمر بملعب الكلية العلمية الإسلامية. يقول: أن الجمهور الأردني كان يشجع الزمالك المصري ضد الفيصلي الأردني.. من اجل عبدالناصر وأم كلثوم وطه حسين.

يعترف أنه يعيش في الماضي. انظروا الى صور عبدالناصر وهو يخطب في الجماهير. إنها تملأ الشقة. يقول بصوت عبثت به الخمر: «لا أسمع إلا أغاني ام كلثوم رحمها الله» بلغني أن المفكر الماركسي «سمير أمين» اعتبرها عنصراً من عناصر الوحدة العربية.

يعيش في عالم أشباح. في الماضي. يصغي الى كلمات عبدالناصر النارية، والى تسجيلات أحمد سعيد. وأغاني أم كلثوم وفايدة كامل الثورية. وهو يزعم أنه لم يسمع بإذاعة مونتي كارلو. في غرفته صور عبدالناصر وغيفارا وكاسترو.

يتمنى لو يتخلى كاسترو عن السلطة ويعود الى جبال السيراما يسترا؛ ليقود حرب عصابات تستنزف الإمبريالية، يصلي تحت ملصق غيفارا: ثم يسكر، يداعب الأولاد في البداية، ثم يثور، ثم ينتحب. إنه لا يفهم العاب الكمبيوتر.

الوجوه مظلمة. عمان الصغيرة القديمة حيث يعرف الكل الكل انتهت وانشطبت. «انت الحب» غناء أم كلثوم وتلحين عبدالوهاب. سمعناها على «الميكروفون» أسطوانة. لم يكن

ثمـة تلفـزيون ولا مـسـجلة ولا فـيديو ولا كمبيوتر. لا بد أن يشارب حـتى الثمالة كي يثبت الزمن على طريقـة المصارعة. كي يهزمـه، ويبني في وجـه دفـقـه سداً منيعاً يحشر الخلود في لحظة واحدة.

***

شظية

سـقطت حـرب الخليج الثانية على اليقين مثل سقوط نيزك عـلى رأس رجـل أصلع ناحل ناتىء العظام. كنت مع العـراق ضد اميركا.. لكنني كنت مع حقوق الإنسان أيضاً.

حـالة من الفـصـام دهمتني. هاجمت العدوان الأطلسي.. صـفق لي البـقـال. ناديت بحقوق الإنسان. كشر البقال وقال مستنكراً:

- وهل هذا وقته يا استاذ؟

فـالتزمت الصمت، واجتاحني إحساس بالعجز.

***

شظية

حين زارني عطوفـة المدير العـام، استـقبلته بحرارة. ما ان اتخذ مجلسه على الأريكة حتى قال وهو يفرك يديه حماسة:

- اسمع أيها الرفيق السابق.. بلا مقدمات، بلا لف، بلا دوران.. عـنـدي اقـتراح مـهـم: ان تشرف على تحـرير النشرة التي تصـدرها المؤسسة.

لاحت منه التفاتة نحوي فأدرك مدى فزعي. ربّت على كتفي وهو يتضاحك وقال:

- آه.. ما زالت عقلية الخمسينات تستحوذ عليك. احتلال موقع في مؤسسة شبه رسمية يعني «التعاون» مع السلطة.. هيه؟ والمبدع سلبي بطبعه. إنه ضد أي سلطة. يا رفيقي السابق. لقد تغير العصر. نحن نعيش زمن الديمقراطية. استلم تحرير النشرة الفكرية التي نصدرها، واستكتب فيها شيوعيين أو قوميين أو... تنهد ثم أضاف:

- إذا لم تشغل هذا الموقع بسرعة. فثمة ضغوط ووساطات تنهال عليَّ كي أوظف الصحافي «سين». وأنت تعرف أن «سين» من أبناء الحرس القديم.. هه.. ماذا قلت؟

احتكم الى ضميرك. أنت مسؤول أمام التاريخ والجيل الجديد. هل ترغب في أن تظل نشرتنا صفراء؟

أدركت بغتة أني في مأزق. قلت متردداً:

- علي ان ادرس الأمر.

صفق عطوفة المدير العام بيديه بحماسة وتضاحك بصخب.

سألته إن كان يرغب في فنجان قهوة. جفف عرق جبينه بباطن يده وقال:

- عندك بيبسي كولا باردة؟

... جافاني النوم. تقلبت على الفراش. الفراش يغرق في بحيرة من العرق. وانا اسبح فيها.

لم أستشر الأستاذ بهجت. استشرت الدكتور يعقوب الذي امتص معتقل الجفر ثمانية أعوام من عمره. قال: إننا نعيش عصراً جديداً، علينا التعامل معه بإيجابية.. ولكن

بحذر. فأبناء مدرسة الأحكام العرفية لا يقرأون الخطابات الجديدة التي تتحدث عن الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان. قال: إنها معركة.. صراع. وينبغي أن لا نكون سلبيين. قلت باضطراب:

ـ سيشلّ «الثوريون» عرضي.

غمغم بثقة:

ـ ألم يشترك «الثوريون» في لجنة الميثاق؟

***

تقرير

الجبال السبعة القديمة انتقلت الى وسط عمان. تراجعت المزارع واختفت الأشجار في بطن الأرض. وقامت مناطق جديدة أنيقة بلا بقالات ولا صبي بقال، بلا حارات، ولا عصابات من الصبية.

الجبال تومىء نحو وسط البلد وخاصرتها. كأنها تقف على حافة لحظة التداعي. لكنها تميل ولا تتداعى. السماء هابطة محدودبة. الشوارع تتدفق مثل أنهار لا تنهار. كأن قوة خفية عجائبية خارقة تتشبث بخيوط التماسك الهش.

مضيت الى مقر الحزب الجديد في الجبل القديم. رائحة سميرة، رائحة شعرها تندفع الى أنفي، تستقر فيه، تتعربش خلايا دماغي. رائحة مثل طعم التفاح اللذيذ. كان الرفاق بانتظاري كي يكتمل النصاب. ثمة توصية بفصل أربعة أعضاء من الحزب بتهمة التكتل العشائري والجهوي والإقليمي والاتصالات الجانبية وعدم استيعابهم لخط الحزب

. أحـدهـم ينكمش في مـقعد قصي ويرتعش. استقبلني بنظرة استـغاثة. كان بيني وبينه عيش وملح قصير الأجل. دافع عن نفـسـه، قـال إنه بلا خبرة، وإنه أخطأ. سأله أحـد أعـضـاء القيادة بلهجة تنم على تحقيق :

ـ لماذا لم تـكـتـب تـقـريراً عما حـصـل في الاجـتماع الذي عقدتموه كتكتل؟

رفع ذراعـه كأنه يرغب في الاستناد الى السقف. حدق الي بعـينين مستجيرتين. أسحت.. حدقت إلى أصابع يدي. قال إنه لم يكن ثمـة اجـتماع بل «جلسـة». كورت قبضتي وضربت الـطـاولـة. وقـلـت بلهـجـة واثـقـة اننا سنضرب أي تكتل غير شرعي داخل الحزب بيد من حديد. بغتة أحسست أنني اتكلم بلهـجـة الماضي. اعـتـذرت عن التـعـبير. قلت إنني أسـحب العـبـارة لكنني أشدد على المضمون. الثلاثة الآخرون المتهمون غـائبـون. انعـقدت سحب الدخان. وضربت مرة أخرى على الطاولة فتتطاير الشرر من العيون.

قال أحدهم :

ـ فلنصوت.

رفـعنا الأيدي مـعلنين إصرارنا على الفـصل. كانوا شباباً، نبـتـوا من صـحـراء القـبائل وأورقوا في الحزب.. ثم أسقطهم خـريف ولدنتهم. كانوا يلعبون، غير أن الطقس متجهم.

دلفت الى البـيت عند منتصف الليل فغادرني النوم. اتصل احـد الذين فـصلناهم، كـان يبكي. صـوته يختنق. اغرورقت عـيناي بالدموع، غير أن صوتي ظل ثابتاً بارداً مثل صليل.

كنت أرغب في سـميرة. عند الفـجـر انفجر رنين الهاتف. صـوت سـميرة الـنـاعـس قـال: إنـني نسيت ضـوء الصـالة مشتعلاً. واشتعل دمي. قلت لها: إنني لم أنس. ناشدتها:

- تعالي.

قلت لها اننا نعيش في عصر لغة فقدت شفافيتها. عصر جمل طويلة تصف ومضة. كلمات عادية فقدت قاموسها الشعري المدهش. قالت إنها ترغب في النوم. قلت بلؤم:

- وحيدة في فراش بارد؟

قالت إن المهندس النووي الذي طلب يدها ولم ير وجهها يقدم لها انحلال اميركا بيد حجاباً على الوجه بيد أخرى. استدركت. قالت

إنها لم تقصد كلمة انحلال. قصدت كلمة حرية.

ولكنها حائرة. تبغض الحجاب وتحب الحرية. لا أحد يعرفني في اميركا. قالت: «مؤسسة الناس» . . غير موجودة. قالت إنها تكره مؤسسة الناس في عمان. ماذا سيقول «الناس»؟ هل ستخرجين هكذا أمام «الناس»؟ الناس . . الناس . . الناس. الناموس.

. . وانزلقت من عتمة البيت. أغلقت الهاتف. قالت إنها لا ترغب في صوت أو ضوء. أطفأت الضوء، وفتحت الباب، دلفت نسمة هينة ثم تبعتها. سمعت صوت خطواتها، إيقاع جسدها. طوقت إيقاع الجسد الخفي. قلت لا بد أن أرى. أحب المفاتن. غطت فمي براحتها وفكرت في فاتورة الهاتف . . وجسدها.

وأشعلت الكهرباء. وقالت :

- لا.

لم أدر إن كانت تتحدث الي أم إليه؟ وقفت في العتمة جامداً ثابتاً لا أميل. . المدينة صامتة. . وهي تثرثر، أصابعها في أصابعي. هو هناك وراء القارات، وصوتها ينطلق نحوه. وتوليني ظهرها، وأنا أحاول أن أعبث بالجسد البهي المظلم.

مجرد محاولة عبث. . مجرد عبث. وساعة الجدار تتكتك عابثة بعبثي. تذكرني بأنني أقتل الوقت على المسرح المقفر، وأنه يغتالني في الشارع المزدحم حيث أتظاهر مع المتظاهرين ضد أميركا، تدفعني مناكب المتظاهرين، فأسقط في هاوية وحدتي السحيقة حيث خازوق الوقت يخترقني بنصله الحاد، على مهل وبأناة، بينما تحوم ذبابة السأم وتدور مروحة الحر الكهربائية فوق رأسي. والعرق يتصبب من مسامي كلها. وهي الى جانبي تفترش الأرض وأنا افترش شعرها الطويل كالحياة. . وأعبث، أعبث، مجرد عبث للاحتيال على الوقت، وجسدها الخفي الذي يؤخر (هو والحزب) الموت الزاحف ببطء وحتمية على سكة وقت سقيم من الملل. أحتال عليه بالجسد الخفي والحزب العلني. . ولا شيء ينتهي بذروة مزلزلة، لا ممارسة الحب المزيف معها، ولا ممارسة السياسة، ولا ممارسة الكتابة. يوشك النوم أن يطلق كوابيسه بين جفني. . فيفزعني شخيرها، الذي يليه صوت المؤذن.

***

شظية

شكل أصابعها التي تليق بعزف البيانو ينم على منبتها الطبقي الذي «كان» أرستقراطياً. إنها كالشبح، بلا ملامح بينة، صوتها مفصوم عن وجهها. مصدره متوار. طيف يمر في عباءة سوداء، وحجاب اسود يعبر عبور نسمة حيية خيمة ـ سوداء، غيمة قاتمة تواري شعشعة باهرة موءودة في جرم إحساس لاذع مجهول بالذنب والخطيئة.

***

شظية

برقت عيناها في الظلمة ثم تأججتا. كانت تغالب رعدة تمشي في أعضائها، قالت: إن سمير يغط في نوم عميق. احتسى زجاجة عرق كاملة. وضرب الأولاد.

مثل هبة ريح هينة مشتعلة برغبة دامسة دفعتني الى الداخل.

قالت إنها أقلعت عن المطالعة. صوتها كان يمس وجهي بفحيح من اللهاث. وراحت تثرثر وأنا صامت وأصابعي تحكي ورغبتي تضطرم. صديقتها عاشت في أميركا وأحست أن الأميركان يسخرون من المسلمين. كانوا يسألونها:

ـ صحيح ان الرجل المسلم يتزوج اربعاً؟

وصديقتها تحجبت في أميركا. وراحت تتردد على المسجد، مع انها كانت مدمنة حشيش.

وهي لا تريد. تريد الزواج من المهندس النووي كي تهرب الى بلاد تخلو من «الناس». الناس فيها مجرد وجوه عابرة لا تحاكم ولا تعلق ولا تقيم ولا تحترف النميمة. والعيون لا تتسع لتراقب أنفاسها. وأنفاسها على خدي. كنت بحاجة الى «دوش» من الماء البارد. وهي بحاجة الى الثرثرة. الظلام يحجبها. نقاب يجلل وجهها البازغ.

سألتني وهي تتحسس لحيتي بأنفاسها الملتهبة المطفأة بالظلام:

ـ لماذا تربي لحيتك؟

قلت إنني لم أجد ما أربيه في هذه المدينة، فقررت تربية

لحيتي.

لم تضحك. كان الموقف يتطلب أن أستدرجها الى السرير. لكنها تثرثر بأصابعها المتشابكة بأصابعي، وبالي مشتت مضعضع. رغبت في أن أحدثها عن فصل الأربعة من الحزب. لكني أشعلت سيجارة. بريق أومض في عينيها. قالت إنها ستتصل بالمهندس النووي الذي طلب يدها دون أن يرى وجهها. لعله رأى صورتها. لعل أهله ارسلوا له صورتها. قالت: إن الساعة مناسبة للاتصال بأميركا. قال المهندس الذي طلب يدها الناعمة: إن صوتها حلو. إنه يعرف كيف يغازل ويعرف أسرار القنبلة النووية.. لكنه لا يعرف وجهها. الصورة غير الوجه. تأتأت. تقول: نعم. وتقول: لا. بصوت خفيض يضغطه الحياء. وجهها الخفي مضرج. وهي تقول:

ـ أريد أن أرى نيويورك.

لم تقل إنها تريد أن تراه أو تبصره. وكان الظلام ضد البصر.

***

شظية

قالت إنها لن تقبل بالحجاب. لكنها تحب أن تعيش في أميركا. قالت إنها هاتفت خطيبها المحتمل. اتصلت بواشنطن قالت: قلت له إنني لن أقبل بأن أجلل وجهي بالحجاب. وقلت: إننا ينبغي أن نتعارف. وقالت إنها كفرت بالأحزاب المتشققة والأسر المتفسخة. لكنها ترغب في أن تلوذ بمجتمع يخلو من «مؤسسة الناس».

***

تقرير

نائب المنطقة «سين» النائية الفقيرة قوميّ حتى نخاع العظم، عرف سجن المحطة والجفر. أجمعت عليه العشيرة ذات الشوكة. لم يكن عضواً في الحزب، كان يعترض على ما يسميه «بوصاية» المركز الأم الحاكم في دولة مجاورة على التنظيم في الأردن. قال: إنهم يتدخلون حتى في «تعيين» أعضاء القيادة في الأردن. وإن قرار الحزب في الأردن غير مستقل. أرجع أحد الأسباب الى عدم استقلالية الحزب المالية.

في البرلمان ألقى خطبة طالب فيها النواب ان يكونوا نواباً عن الأردن كله لا عن مناطقهم الانتخابية. عشيرته قطبت حين سمعت هذا الكلام. قالوا غاضبين ساخرين:

في الانتخابات القادمة انزل ممثلاً لدائرة انتخابية اسمها «الأردن».

ولما صار نائب المنطقة «سين» وزيراً انفرجت اسارير العشيرة، وانتظر أهل المنطقة الكهرباء والماء والطرق المعبدة والجرافات والمهندسين وتوظيف العاطلين عن العمل. لكن نائب المنطقة «سين» سرعان ما استقال من الوزارة احتجاجاً على المفاوضات مع إسرائيل (من موقع قومي) جن جنون الناخبين. قالوا: انتخبناه كي يطور أوضاع المنطقة ويخدم أبناء البلدة. فإذا كان الفلسطينيون يوافقون على المفاوضات .. فما باله يحشر انفه ويعتبر نفسه فلسطينياً اكثر من «ابو عمار»؟

نائب المنطقة «سين» قرر أن لا يخوض المعركة الانتخابية القادمة بعد تقريع العشيرة. قال: أنا مناضل وصاحب موقف، ولن ألعب دور المختار أو رئيس البلدية أو نائب الخدمات.. تحت قبة البرلمان.

قال: إن الذين انتخبوه فرضوا عليه مقاطعة اجتماعية.

***

شظية

أم الخطيب الذي يدرس الهندسة النووية في أميركا. سألت سميرة عن وزنها وطولها. سميرة استهجنت السؤال. الأب التزم الصمت، والارتباك يطل من عينيه الصغيرتين. سميرة قالت إنها لن تتزوج بهذه الطريقة.

زوج سميرة السابق الذي انهار مع انهيار المعسكر الاشتراكي. أرسل لها رسالة من مكان مجهول. قال فيها «تصوري أن الأمين العام يقول إن السلطة تغيرت..

وخطابها السياسي تطور. . ومواقفها تجددت جذرياً، وينبغي أن نشجعها على ذلك، وأن لا نكون سلبيين. تصوري»!! واضاف أن الأمين العام يصرح بأنه ينبغي لنا البحث عن لغة جديدة تنسجم مع روح العصر. لا بل ذهب الى حد القول بأنه لا يمانع في احتلال موقع وزاري إذا عرض عليه مثل هذا المنصب. يقول: ينبغي أن نتجاوب مع التغيير والتطور، وان لا نترك الفرصة لعودة نفوذ رموز الأحكام العرفية. . سميرة! أكاد أجن . لا أفهم. هل ننسى الماضي؟ أفكر في الانتحار.».

***

شظية

كان سمير يعاقر المشروب أمام أولاده. أقصد بين «نوبة» إيمان وتدين ونوبة أخرى. كانوا يتحلقون حوله، ينتحبون، يخفون زجاجة العرق. يتعارك معهم. يعيدون الزجاجة صاغرين. يلعبون ألعاب الكمبيوتر، وسميرة في المطبخ تقشر البصل وتبكي. أهو البصل أم معاقرة شقيقها للمشروب؟ ما الذي يدفع الدموع الصامتة من عينيها؟

حين يستبد به السكر كانت تنتابه نوبة نحيب هستيرية. يقول كلمات لا يفهمها أحد. يقول :

ـ نظفوا الهواء من الدماء. فليستحم الهواء قبل أن نتنشقه. ثلاثة حروب في العراق؛ واحدة ضد الأكراد، والثانية ضد إيران، والثالثة ضد قوات الأطلسي. زوج حبيبتي العراقية استشهد في الحرب الثالثة لحسن الحظ، لكنها

خائفة على ابنها من حرب رابعة. قالت ان زوجها قتل بعد ان خاض عشرة اعوام من الحروب ضد الأكراد وايران والأميركان.. كان عمره ثلاثين عاماً فقط حين لفظ أنفاسه. أي أنه قضى عمره في الخنادق الموحلة بدلاً من الفراش الزوجي والسباحة والسياحة وشم الهواء وقراءة الشعر والاستماع الى الموسيقى.

وينتحب سمير ويعترف لسميرة:

ـ أحبّها. أُحبّ زوجة المقاتل المقتول.

لا تقول وهي تقشر البصل ولا تمسح دموعها:

حبيبها الأول مات في ايلول السبعين برصاصة طائشة، مات عبثاً.

وها أنا أخت رجل تقتله الخمر ويحب امرأة اخرى مات زوجها.

يسألها بلسان عبثت به الخمر:

ـ ما الفارق بيننا؟

لا تقول وهي تمسح دموعها براحة يدها:

ـ حبيبي قتل وأنا حية، وحبيبتك حية وقتل زوجها. انا احببت ميتاً. أنت تحب حية.

وتضحك بمرارة وتضرب البصلة بالسكين بقسوة:

ـ بل تحب أفعى.

لا يضحك. الصغار نسوا المشروب، إنهم يعبثون بألعاب الكمبيوتر. يضع فم الزجاجة على فمه ويقول:

ـ بعد عشرة أعوام لن يشتري أحد كتاباً.

تسأله دون أن تلتفت:

ـ لماذا؟

يترنح. يسقط على الأرض. يطلق صرخة خافتة يهمهم:

- الصحن التلفزيوني اللاقط.. ألعاب الكمبيوتر.. الفيديو. لن يلتفت أحد الى الشعر.

يحاول أن ينهض.. بلا جدوى. يمد يده إليها. تلتفت، ترمقه بنظرة تزاوج بين المرارة والسخرية. وتتركه مكانه على الأرض. تشيح. تواصل تقشير البصل. يهرع الأولاد الصغار، يصرخ أحدهم:

- بابا وقع.

ينتحبون وهم يسحلونه على الأرض كي يحملوه الى الفراش.. وهو ينتحب بصوت أعلى من انتحابهم. ورانية الصغيرة تبحلق بعينين واسعتين اختصرتا دهشة العالم.

زوجته السابقة كانت تقول بعد تدينه :

- لا أدري هل أفرح أم أبكي؟ أقلع عن السكر، لكنه يطالبني بالاستقالة من وظيفتي والتزام البيت، ووضع الحجاب على الوجه والجلباب فوق الجسد. إنه يمنعنا من سماع الموسيقى.. تصوري.. يقول :

- أسمح بسماع الدف والطبل فقط.

لم يكن يربي أولاده . وها هو يربي لحيته!

***

تقرير إخباري

عقدنا اجتماعاً في الحزب لبحث مسألة المطالبة بزيادة عدد المقاعد النيابية . بدأ الاجتماع هادئاً وودياً. بغتة جحظت العيون وانتفخت الأوداج وأظلمت الوجوه، وتكهرب جو الغرفة المضاءة بالكهرباء. إذ اقترح الرفيق ناصر الصفدي

مضاعفة عدد مقاعد الزرقاء وعمان التي تضمان مليوني نسمة، مع مقاعد مدن الجنوب التي يقلّ عدد سكانها عن مائة ألف نسمة. انتفض أحمد الشوبكي كالملسوع وزعق:

- أكاد اتنشق رائحة إقليمية في هذا الكلام. صحيح ان مدن الجنوب تفتقر الى الكثافة السكانية. لكن فقرها وحاجتها الى الخدمات والحرمان الذي تعانيه تحتم زيادة عدد نوابها. (ثم هاجم العاصمة عمان واتهمها بالتهام حصة الأسد من غنيمة الوطن) وذكر أن أهل الجنوب هم الذين ساهموا في الخيار الأردني نحو الديمقراطية.

ساد الهرج والمرج لحظات. ثم بادر الأمين العام وهدد بالاستقالة إذا لم يحتكم الجميع الى العقل، ويناقشوا المسألة بهدوء. وبمعجزة ما لم تتطاير المقاعد في فضاء غرفة الاجتماع، ولم يلوّح أحدهم قبضته في الهواء (لم يكن ثمة هواء أصلاً فالحر صاهر) وتجاوز الحزب منعطفاً انشقاقياً.

***

شظية

أيام العزلة كان «بطلنا» يرغب في الاعتكاف وممارسة الكسل. محارب يرغب في الراحة الباعثة على نشوة تشبه النعاس اللذيذ. كان يرش الحديقة الصغيرة بالماء. ويراقب وجهه المتقاعد وهو في عز الشباب. يرتعش ويقفز من مكانه مروعاً إذا دفع الهواء العنيف الباب فأطلق صوت قذيفة.

يجلس ساعات ثقيلة وهو يدخن بشراهة طالباً السرطان المبكر. زعيم الخمسينات المنسي الذي تراكم عليه غبار فقدان

الذاكرة، اتصل بأصحابه وناشدهم:

- أنقذوه.. سوف ينتحر قريباً.

عمان بلا بحر. يطوف في شوارع جبل اللويبدة. يمد نظره كأنما يتمشى على شاطىء. يمد نظره كأنما يرغب في مشاهدة أفق البحر البعيد. يرتطم بصره بالبيوت القديمة.

يقرر زيارة الأستاذ بهجت، المناضل العتيق، يتذكر الطوابق الأربعة التي يجب عليه أن يتسلقها كي يصل الى شقة المناضل الذي يهبطها ويصعدها أربع مرات في اليوم.. فيعدل عن الزيارة. الإنهاك يهده وهو في الأربعين من عمره. والأستاذ بهجت ينزل ويطلع كالمكوك من طابقه الرابع الى شارع سينما الخيام الى مطبعته الواقعة أمام مدرسة سمير الرفاعي.. ثم يعود ماشياً. مشية تنم على رفضه العنيد لأي صيغة مصالحة مع عالم يتغير.

***

شظية

تدريجياً لم يعد الحزب مجرد وسيلة لاغتيال الزمن. بات مقتنعاً برسالته، التي كانت تصطدم يومياً بالواقع التقليدي. كانوا يجلسون في غرفة الاجتماعات، سحب الدخان تنعقد ثم تنفرط فوق الرؤوس المائلة قليلاً الى اليسار أو اليمين.

قال الأمين العام لأحد الرفاق بلهجة لا تخلو من لباقة مصطنعة:

- موقفك في النقابة كان خطأ يا رفيق. إنه يناقض توجه الحزب العام.

جحظت عينا الرفيق النقابي، ثم ألقى نظرة استخفاف من علٍ. قال بلهجة تذكر بشخصيات رعاة الابل الغلاظ:

ـ وما هو موقف الحزب العام؟

انحرفت زاوية فم النقابي ربع المدني ربع البدوي ربع الفلاح ربع المتعلم. ارتسمت ملامح سخرية على وجهه. عض الأمين العام على شفته السفلى، استخرج سيجارة من علبة الدخان. كان ينزف عرقاً. مد يده نحو النافذة ودفع لوح الزجاج الى النهاية، اندفعت هبة هواء ساخنة. قال الأمين العام وهو يكز على أسنانه :

ـ عليك أن تصوب موقفك يا رفيق. . وإلاّ اضطررنا لتجميدك وتنسيب فصلك من الحزب.

أظلم وجه النقابي شبه البدوي. كان يرتدي بذلة أنيقة فاخرة، وربطة عنق ذات لون منفر. قال إنه لا يفهم. أخذ الأمين العام رأسه بين يديه وكأنه يدفنه بين أصابعه. قال وهو يطرد ذبابة حطت على أنفه:

ـ عليك أن تقدم للمكتب السياسي نقداً ذاتياً واعتذاراً خطياً عن موقفك.

انتفض النقابي كمن لسعته أفعى، دارت عيناه في محجريها. انتصب كالرمح ومد يده مشيراً نحو الأمين العام، كان يرتعش غيظاً وغضباً. قال مكهرباً جوّ الغرفة الباهرة الضوء:

ـ اسحبها .

أينع الذهول في عيون أعضاء المكتب السياسي. تمالك الأمين العام نفسه وقال بنبرة تنم على عصبية منحبسة:

ـ أسحب ماذا يا رفيق ؟

زأر النقابي وقد احتقن وجهه :

ـ اسحب كلمة «انتقد ذاتك» و«اعتذر» . . أنا رجل ذو كرامة وعزة نفس وشهامة. . ثم لا تقل لي «يا رفيق» مرة أخرى. نحن لسنا شيوعيين.

أخذ الأمين العام رأسه بين يديه مرة أخرى كالمستسلم. تدخل عضو في المكتب السياسي وقال بعد أن شلح ذهوله:

ـ يا رفيق. . أقصد يا أخ. . النقد الذاتي جزء من التقاليد الحزبية لأي حزب. ألم تكن عضواً في حزب سابق؟

التفت النقابي. بدت عيناه وكأنهما ترسلان بريقاً جهنمياً. قال:

ـ لا. الأحزاب السرية السابقة والتي أصبحت علنية. . هدامة. . شيوعية. أنا ما كنت عضواً في حزب. كنت أيام زمان عضواً في المجلس العشائري. . وفي مجلس البلدية.

ـ ران الصمت على الجميع. الذهول كتم الأصوات. التفت النقابي نحو ابن عمه (عضو المكتب السياسي) وهتف بغلظة:

ـ مالك ساكت؟

ثم دار حول نفسه وطالب ابن عمه بأن «يفزع» له. قال:

ـ هل يطيب لك أن يبهدلني هذا (وأشار الى الأمين العام) وأنت ساكت؟

أشاح ابن عمه بوجهه محاولاً أن يواري حرجه. قال لابن عمه النقابي بصوت مختنق:

ـ انضبط يا رفيق.

ثارت ثائرة النقابي (الحزبي الجديد) وهتف وقد انتفخت أوداجه:

ـ يعني أنا ماني مضبوط؟ انت ما قلت لي ان هذا الحزب يحكي مثل الشيوعيين؟

واندفع نحو الباب كعاصفة جبارة عاتية وهو يردد باستنكار:

ـ قال «انتقد نفسك» . . قال!

خرج الرفيق النقابي كالزوبعة وهو يخور. وهرع خلفه مجموعة من الرفاق كانوا يدردشون في الصالة.

في صباح اليوم التالي أعلنت الصحف عن انشقاق في صفوف حزبنا بقيادة الرفيق «النقابي» وعضوية سبعة من أبناء قريته، تعصبوا له، وغضبوا لغضبه، وفزعوا له، وقدموا استقالاتهم احتجاجاً على القيادة «الشيوعية» التي أهدرت كرامة ابن بلدتهم، حين طلبت منه طلباً يمس كرامة العصبية. . أن ينتقد نفسه.

ما كان الحزب شيوعياً. لكنه رفع شعار الانحياز للكادحين، وطالب بكل براءة بتجاوز العلاقات القبلية والعصبوية والجهوية. . لصالح أُردن عصري يعيش في قلب القرن الحادي والعشرين.

***

بات الحزب هاجسي. اركض جل وقتي في سبيل الحزب. الحزب بات حلمي، بات الوسيلة الوحيدة القادرة على امتصاص هذه الطاقة الجبارة الطاغية التي تمور في أعماقي.

جافاني النوم تلك الليلة. كنت أحلم دون نوم. قلت لنفسي: إنني أنفقت عمري وأنا أحلم دون نوم. اجتاحتني رغبة عارمة بسماع صوت سميرة. بغتة تناهى الى مسمعي صوت طرقة خفيفة واهنة على الباب. انزلقت من السرير كمن مسه تيار كهربائي. قلت مواسياً نفسي:

ـ إنها سميرة.

فتحت الباب بلهفة. أطل وجه سمير. كان يترنح سكراً. قال بصوت عبثت به الخمر:

ـ عندك مشروب؟

تسمرت في مكاني. بحلقت في عينيه اللتين يشع منهما بريق مجنون جهنمي. تأملت لحيته. قلت بذهول:

ـ والصلاة.. والإيمان.. والـ...

قاطعني وهو ينظر الي بعينين شبه مغمضتين:

ـ عا.. دت. حليمة.. الى عادتها.. القـ. ديمة.

ثم دفن رأسه في صدري. ضمني بقوة. وراح ينتحب ويرتعش كأنما مسته نوبة قشعريرة. وأنشأ يضرب بقبضته الواهنة على رأسي ويردد:

ـ لماذا؟ لماذا يا ربي؟ لماذا بلوتني بهذا المرض.. أنا من بين كل الناس. هل أخترع حرباً أخرى، كي أتسلى، وأتحرر من هذا المرض؟

وفهمت أنه يقصد إدمانه على الكحول بـ«المرض». دفعته بهدوء وأناة نحو أريكة في الصالة. أشعلت النور. انحط على الكنبة متداعياً. اخفى وجهه بين يديه. لم يجفف دموعه. ظل يرتجف مثل «شختورة» ورقية هينة في محيط هائج متلاطم. تسلل صوته من بين الدموع والأصابع:

ـ أحضر لي كأساً من الويسكي.

قلت بارتباك حاولت مداراته دون جدوى:

ـ لا يوجد لدي سوى زجاجة عرق.

صرخ دون أن ينحي يديه عن وجهه:

ـ أحضرها .. حتى لو كانت زجاجة خر..!

حين فتحت دولاب المطبخ وتناولت زجاجة العرق طرق مسامعي صوت المؤذن. أخذ الإعياء مني كل مأخذ. فتحت

الزجاجة. سكبت قليلاً من العرق في كأس. فتحت الثلاجة. تناولت قطع ثلج. ثم سكبت قطرات من الماء.. وانزلقت قطع الثلج فوقه. حملت الكأس الى الصالة. لم أعثر على سمير. اختفى. هرعت الى الباب المفتوح. لم أر سوى الظلام. يئست. أوشكت على غلق الباب فسمعت أنيناً ينطلق من ركن مظلم من أركان الحديقة.

دنوت بحذر. لم أر شيئاً. لا شيء سوى ظلام مكفهر ونسمات ساخنة.. وصوت متحشرج يردد وهو يتصاعد نحو الفضاء:

ـ أغثني.. يا ظاهر.. يا باطن.. أغثني.

وأدركت أن سمير سوف يخوض معركة يوم غد مع أولاده حول عودته الى معاقرة الخمر. وأن إحساساً بالفجيعة سوف يعصف بسميرة.. كان يخور كثور هائج.

***

شظية

عينا سمير زائغتان، يدور محجراهما بلا توقف. كنا نتمشى قرب متنزه اللويبدة. سألني إن كنت سأترشح للانتخاب. دسست يديّ في جيبي بنطالي. وجوه العابرين خريفية تفوح برائحة عراقة بائدة. قلت: إنني لم أستقر على رأي بعد، وقف فاغراً فاه ووضع يديه على خاصرتيه وقال وقد انقبض وجهه الشاحب:

ـ هل سألتك سؤالا؟

بوغتّ. ولكني تمالكتُ نفسي. قلت إنه سألني إن كنت

عـازمـاً على خـوض الانتـخابات. كان مبهوراً، من عينيه تشع نـظـرة نـائيـة. تـلـفـت يـمنة ويسرة كأنها يتـفـحص الشـوارع والبيـوت. ليـتـحـقق من أنه في يقظة. تملاني بعينين واسعتين لاح فـيـهما ضياء خرافي. تمتم قائلاً وهو يغالب رعدة تمشي في أعضائه بلا جدوى:

ـ أين نحن؟

استـولت عليّ الدهشـة. كـان يبدو شارد اللبّ غافلاً عن كـل أمـره. عـن لي أن أشـده من ذراعـه وأطير به الى طبـيب أعصاب. لكن وجهه المنقبض انبسط فجأة. قال:

ـ آه نـحن في جبل اللويبـدة. هناك كـان يسكن المرحـوم حسـني فـريز. كنت أتردد عليه بين الحين والآخـر. إنني لا أتردد هذه الأيام إلا على بيت الدكـتـور عـبـدالرحمن والأستاذ بهـجـت. كـلاهما في جـبل اللويبـدة. إنهما يحبـانك. يسألان عنك.. العملاقان. لقد انقرض جيلهما.

أشـجـار السرو غبراء. تقف منتـصـبـة في حـدائق البيوت الـقـديمـة. اسـتـولت عليَّ رغـبـة في أن أواري هولي في صـدر سميرة.

كنت أغـالب إحـسـاسي بالفجيعة حين توقف سمير وقال بصوت متهدج:

ـ هل كنت أتكلم عن حسني فريز؟

أنـكرت مـا تسـتـقـبله حـواسي من يقظة مـروعـة. هالني الأمر. قلت:

ـ سمير.. ينبغي أن تراجع طبيباً.

ظهـرت البـغـتـة في وجهه. مد بصره الزائغ الى بعيد. قال بانكسار:

ـ إنني لا «أجمّع» أليس كذلك؟

أومأت برأسي. جعل ينظر حوله ليتحقق من أنه في يقظة. سقط ذقنه على صدره وغمغم فيما يشبه الاعتراف:

ـ بدأ الأمر تدريجياً. بدأت ألاحظ أنني أنسى الوجوه، وأنسى الحديث الذي بدأت به.. والأمكنة أيضاً تتقمص بغتة ملامح غريبة عصية على ذاكرتي. لكنني أذكر صور ووقائع الماضي البعيد بطريقة مذهلة. المشكلة تتعلق بالحاضر. أشلاء وشظايا فسيفسائية. مضى يتكلم بلهجة تنم على مرارة مفجعة. كان حديثه متقطعاً.

قال: إن بعض أصدقائه صاروا سفراء ووزراء ونواباً وصحفيين مشهورين. أما هو فقد ظل هامشياً. وقال: إن انهيار المعسكر الاشتراكي وحرب الخليج الأخيرة قد يكونان جزءاً من كابوس غير حقيقي..

عض على شفته السفلى وقال إن حالته قد تكون عائدة الى إفراطه في تناول المسكنات والخمر. ثم تساءل إن كان عبدالناصر قد قتل قتلاً.

سرَتْ رعدة في جميع أعضائي. وجدت نفسي معقول اللسان، لا أملك أن أنبس ببنت شفه.

***

شظية

تناهت طرقات الباب الى مسامعي. الجرس معطل. فتحت الباب، فاذا بصاحب البيت يطل بوجه مظلم وعينين تشعان بريقاً مجنوناً.

مد بصره الزائغ الى بعيد وهو يشيح برهة، ثم التفت إليَّ

وقال :

- ينبغي أن أتحدث اليك.. هل تسمح؟

انقبض قلبي. اتقدت في عيني أمارات الريبة والشك. صاحب البيت لم يأت هذه المرة في سبيل الإيجار الشهري.. نفسي تحدثني بوجود شيء خطير.

تداعى الرجل على الكنبة. بدا مضطرباً حائراً.. وفي عينيه سحب وغمام. أطرق ملياً ثم قال دون أن يرفع رأسه :

- أنت تعلم أنني أنظم الشعر، وأنني كنت أحتلّ موقعاً مرموقاً في الدولة، وأنني كنت أحد أسباب غلق رابطة الكتاب الأردنيين بالشمع الأحمر. وانني ساهمت في إقامة «اتحاد الكتاب الأردنيين». بالإضافة الى كوني ابن عائلة مرموقة. سقط ذقنه على صدره، وقال إنه لا يرغب في كوب شاي أو فنجان قهوة أو زجاجة بيبسي كولا باردة. انه يرغب في الحديث فقط. لم أنبس، لم أعرض عليه كوب شاي أو فنجان قهوة أصلاً. قال :

- تصور. رموز الرابطة احتلوا في مرحلة ما يسمى بالديمقراطية مواقع حساسة.

أطرق طويلا، ثم قال: إن «هؤلاء» ما كانوا يحتفلون بعيد الثورة العربية أو الاستقلال أو أو.. كانوا أصدقاء الشيوعيين والماركسيين.

تململت في مقعدي ولم أحك. اغتصب مالك الدار ابتسامة مريرة وقال إنه يشم رائحة مؤامرة، ضد المخلصين التقليديين. قال بصوت متهدج:

- تصوّر يا رجل أن هؤلاء الهدامين المخربين الذين احتلوا مواقعنا، باتوا يصفوننا علناً بأننا رجال العهد العرفي. ونحن كنا ننفذ تعليمات.. صحيح اننا كنا نحرّض، ولكن

لمصلحة البلد. نحن اصحاب الولاء للوطن. . لا هؤلاء.

رميته بنظرة فاحصة ولم أنبس. قلت في نفسي: إن هذا الرجل يفهم الولاء للوطن على أنه ولاء للحكومة.

***

شظية

هاتفتني. قالت: إن «الحزب»، أي حزب، لا يحل مشكلة الزمن الباهظ الثقيل. قالت إن خطيبها يضغط عليها لتضع الحجاب. قالت: ـ لا أريد . . لكن خطيبي يريد.

سألتها بدهشة:

ـ خطيبك؟

قالت:

ـ جاء أبوه وأمه وأخته. . استقبلهم سمير. قالوا إنهم يطلبون يدي لابنهم الذي يدرس دكتوراه في الفيزياء النووية في أميركا. كانت أخته محجبة. نقاب يستر وجهها. وأمه تضع منديلاً حول رأسها. الأم لا تسمع، المنديل كثيف.

ناشدتها ان ترفض دون تردد. ترددت، رأيت لهاثها القلق. قالت إنها ترغب في العيش في أميركا، لكنها تمقت الحجاب.

تسللت في عتمة الليل، تخترق النوم وتتجنب الكوابيس. كنت بانتظارها. قالت بصوت معتم خفيض:

ـ لا تشعل النور.

دفنت رأسها في صدري. منتصف الليل. قبل قليل عدت منهكاً من اجتماع حزبي طال. مرشح الحزب في القرية النائية

قال: إن العشيرة ستجمع عليه إن خاض الانتخابات باسمها. العشيرة اجتمعت وخيرته بين الحزب والعشيرة. اذا اختار الحزبِ فسوف تعرضِ العشيرة عنه. بعد نقاشٍ، وجدالٍ خَطفَ المساءَ ونصفَ الليل.. أذعنا قلناكَ: «انزل.. باسم العشيرة».

شقت طريقها في العتمة الى الصالة. كانت تبحث عن مجهول محدد. لا ترغب في ضوء.. وتبحث في الظلمة. فتحت خزانة صغيرة. تتحسس الأشياء بعينيها وأصابعها. تناولت زجاجة ويسكي. قالت إنها ترغب في أن تشرب حتى الثمالة.

كنت مثل الشبح، أقف خلفها والدهشة تربكني. قلت بذهول:

- وماذا عن أخيك؟ سيشم الرائحة حين تعودين.

تناولت كأساً وسكبت الويسكي. اقتعدت الأرض. سألتها إن كانت بحاجة الى ثلج. قالت إنها تحب خطيبها الذي لا تعرفه.. وإنها تحب الهمبرغر والبيبسي كولا. قالت إن سمير سيتسلل يوماً ما الى الأرض المحتلة وهو يحمل «سكين» مطبخ فيِ يد، والمصحف في اليد الأخرى.

كنت مرهقاً ولا أفهم. تناولت كأساً فارغة. ضوء الحمام يصل الينا مكدوداً شاحباً. سكبت الويسكي في كأسي. نحيت الكأس جانباً. ضممتها بقوة. تملصت بخفة هينة. قالت إن زوجها السابق كان يغتصبها: كان يأتيها عند الظهر... وهي تطلق شخيراً مشوشاً. يصرخ طالباً الصمت. الشخير يشوش حواسه. قالت إنها لم تقل له إنها ترغب في ممارسة الحب عند الفجر. لا تطيب له مضاجعتها الا بعد الظهر. حين تكون معدتها مزدحمة بالطعام والأحشاء

منتفخة. لكنه يفضل القيلولة؟! تحب القيلولة. أيام العمل السري كان ثمة فوق الأرض وتحت الأرض. كان يعمل تحت الأرض.. بعد كل هذه الزلازل لم يبق تحت وفوق. كارثة الخليج جعلتنا كرة تسبح في فضاءات لا جهات لها. جاء أهله من الكويت وسكنوا معنا. وصار الحزب علنياً. وعشنا جميعاً في بيت واحد.. الماء الكهرباء المرحاض الطعام المقعد.. المعد لي وله صار يتوزع على عشرة اشخاص. قال: إن الديمقراطية لعبة شيطانية. لقد أدمن الشعار السلبي والعمل تحت الأرض.. في الخفاء. وها هو الشارع يطالب ببرامج وحلول وبدائل. لقد أدمن لعب دور الضحية.

أصبح ضائعاً. يشتم الأمين العام وأمه وغورباتشوف والفواتير.

كان متفرغاً في الحزب. يقوم بمهمات خطرة. يوزع المنشورات السرية. إنه متقاعد الآن. فالحزب ينشر جريدة، وهو لا يتقن فن الصحافة أو الكتابة.. ولا يجيد الخطابة أو إلقاء المحاضرات السياسية.

شعر أنه عبء على الحزب. شتم حرب الخليج ومفاوضات مدريد وواشنطن.. وقال إن كرامته لا تسمح له بأن يستمر في الحصول على مخصصات تفرغ من الحزب. قال إنه راهن على غورباتشوف وصدّام حسين.. وخسر. قال إن العالم تغير. كان يستحم. الصابون في عينيه. عارياً وقف تحت الماء. لم يفتح عينيه. كنت أحاول أن أفرك ظهره. قال دون ان يفتح عينيه انني جزء من الماضي. وقرع اخوه اللاجيء من الكويت باب الحمام. وقال إنه يرغب في أن يبول.

صرخ زوجي. قال:

ـ استعمل الحمام العربي.

رد الأخ أن أمه تشغل الحمام العربي. كان باب الحمام الغربي الإمبريالي مغلقاً. وكنت اجفف جسد زوجي، كأنني أخمد ناراً متأججة. كررها:

ـ أنت جزء من الماضي. صرت مثل الأرض المحتلة عام ١٩٤٨. لا أحد يطالب بك.. ولا أنا.

لم أفهم. لم أدرك أنه على وشك الانهيار مع بغداد وموسكو. وطلّقني.. ثم انتسب الى حزب عشائري. قال إنه مستعد للموت في سبيل صدّام حسين. قلت: لماذا لا تتحدث عن الحياة من أجل الحب أو الشعر؟ لماذا تحب ان تموت؟ قال إنني لا أفهمه وإنه إنقرض.

أخفيت فمها براحة يدي. صمتت. كتمت صمتها. ملت عليها، عريتها في الظلام.. راحت تنشج، كنت أشعر بجسدها يرتعش بين يدي.

***

شظية

صاحب البيت قال إنه سيرفع الإيجار. كان كرشه يميل أمامه ويطل. قال إن الوزارة ستتغير. وإنه لن يدخل في بدلته الأنيقة ويجلس قرب الهاتف منتظراً مكالمة مفرحة من رئيس الوزراء المكلف الجديد. قال بتجهم:

لقد دفعونا الى زاوية النسيان. لو كنت شيوعياً أو بعثياً.. لو كنت ضد النظام في السابق.. لو لم أُخلص للنظام طوال ثلاثين عاماً وأُعلّم أولادي أن الأحزاب هدّامة وتعمل

ضد مصلحة البلد. . لعينوني وزيراً. صاروا يصطفون المسؤولين من أجواء المخربين. تصور أنني شخصياً شاركت في قرار إغلاق رابطة الكتاب الأردنيين. صحيح إنني لم اشارك بشكل مباشر. لكنني ساهمت وحرضت.

نفخ وهو يحتسي القهوة، وقال إنه يفكر بالانضمام الى حزب وسطي عشائري. ثم احتقن وجهه فجأة. نحى فنجان القهوة جانباً، وسألني :

- هل تعلم يا جار. . انني لم اسألك حتى هذا اليوم عن أصلك؟ التفت الي وزأء:

- من أي بلد أنت؟

قلت وأنا أحتسي قهوتي:

- من عمان.

قال وهو يلوّح بيده قرفاً وكأنه يطرد ذبابة:

- طيب. . والدك؟

قلت باقتضاب:

- من عمان.

قال بلهجة تنم على نفاد صبر:

- جدك ؟

قلت بإصرار:

- من عمان.

قال وهو يتداعى مستسلماً مستيئساً:

- لا أحد أصله من عمان سوى الشركس. عمان مدينة بلا أصل. أصلك. . . من أين؟

وقفت منتصباً أتميز غيظاً. لم أُجفّف العرق المتفصّد من جبيني.

تركته في الصالة وغادرت البيت. هممت قبل أن أخرج :

- عربي.

لم ألب فضوله الوحشي. صرخ:

- عربي ؟!؟ أين تصرف هذه الكلمة؟

***

٢

شظايا الفسيفساء

فسيفساء

شروخ في فسيفساء الوطن الأم. الوطن الأم يجهض الأجنّة، ويئد المواليد. سقطتُ على البلاط. البلاط بارد. وأنا أنزف عرقاً بعد أن احتسيت عرقاً. وسقطت مرة على الرمال.. الجبهة النفطية الصحراوية، شمس جهنمية تصهر الحجارة والصخور. طائرات مروحية فوق رؤوسنا. تثير أعمدة غبار عملاقة تمتد نحو الفضاء. مروحة كهربائية في عمان تطرد الذباب . الذباب يلوذ برأسي، يحوم حول وجهي. تحط ذبابة على أنفي، لا أطردها ولا أجفف عرقي. كان عليّ أن أبقى في الأردن.

١٩٧٠ .. اجتزت الحدود الى دمشق ثم الى بيروت.

١٩٨٢ من بيروت الى قبرص.. ١٩٨٢ ومن قبرص الى عاصمة الرفاق. ومنها الى جبهة الحرب الجهنمية الطويلة.

كان «ضافي» في السجن. فارس بني حميدة في سجن عربي و«طالب صويلح» ابن «النعيمة» «قرب إربد».. فرّ من أحراش جرش الى عاصمة الرفاق. استقبلوه استقبال الأبطال.. ثم أعدموه.

جللوا وجهه بغطاء من الخيش. لم يسمحوا له باطلاق صرخة.

والقذائف العشوائية في بيروت والجبهة الجهنمية ذات الحربين. و«رانية» تقذفني بنظرة ملتهبة. إنها تقاطعني . لم تتجاوز خمس سنوات. ربما ست سنوات، لا أعرف، تتحداني بصمتها العنيد. عصية. الوصول اليها مستحيل. إنها تُضرب عن الكلام مع الكبار. أخذتها، بالقوة، وأخذت

نفسي الى طبيب أعصاب. قلت له إننا مشوهان. امتنعتْ عن الرد عليه. طأطأت رأسها وراحت تراقب أصابعها. ثم ماذا حدث؟ لا أتذكر. وجهي شروخ فسيفساء وأخاديد يباب، يحف به الذهول، يطعنه الهول.

حين أطلقنا النار على الوجبة الأولى من رفاقنا المتآمرين.. سقط أحدهم الى الأمام. ارتطم وجهه بالأرض، واضطجع على بطنه. كان استثنائياً. جميع الذين أعدمناهم سقطوا على ظهورهم. كانوا يصطفون على شفير مقبرة جماعية. نطلق الرصاص فيقفزون قفزة رشيقة هينة في الفضاء ثم يتساقطون في الحفرة الجماعية. كان عليّ أن أرفع رفيقي الذي سقط على بطنه ووجهه. وأدفعه الى الوراء.. الى الحفرة. إنها تعليمات المسؤول الرفيق. وكان القتيل رفيقاً برفاقه، مرهفاً، صديقاً. ولعنت قانون الجاذبية المضادة. دنوت من الحفرة وأنا أسحله. أجرجر جثته. ألقيت به الى الحفرة.. فوق ركام جثث اجتّثت أحلامها. تقيأت في شقتي المطلة على دجلة من بعيد. تقيأت شهراً بكامله وأنا أعاقر الخمر وأتقيأ وأراني مخنوقاً في المقبرة الجماعية تحت ركام أشلاء رفاق. كنت أعرف الرفيق الذي أعدمته، نسكر، نلعب الورق ونغازل الصبايا، ننشد للحزب.. معاً.

***

فسيفساء

سميرة اصطحبت الأولاد الى متنزه اللويبدة. كنت أراقبهم من نافذة البيت المطلة على كائنات وأشياء مبعثرة،

ثمة شيء مشترك خفي بينها وبين راغبة الصغيرة. لكل منهما عالمه الداخلي العصي. سميرة نائية دائماً. تقف أمامي وجهاً لوجه، وألمس لمس اليد أنها نائية.. في عالم ناء. لعلها تحلم بالعالم النووي المتدين الذي جاء والده وأمه ليطلبا يدها. حين سمعت بأنه سيأتي (إذا وافقت) ويعود بها الى اميركا حيث يعيش، منحت والديه يدها دون قلبها. رأت صورته ورأى صورتها. أمه سألت عن طولها ووزنها. وقالت إن ابنها المهندس العلامة يفضل المحجبات. وسميرة كانت تلعب البيانو في صغرها. ترقص الباليه. قلت لأم العلاّمة العربي الأميركي المتعصب: إن سميرة تسبح في بركة نادي السيارات الملكي. ما كنت أكذب. ولكن اجتاحتني رغبة سوداء في استفزاز الأم. أغتصبت ابتسامة بعد أن جحظت عيناها. قالت باقتضاب أبله: - طيش شباب. بعد الزواج ستسبح.. ولكن في بركة مخصّصة للنساء. قلت: إن أميركا لا تخصص أحواض سباحة للنساء. لم اكن متأكداً. غير أني كنت مستفزاً. سميرة حسمت المعركة حين قالت:

- لست مدمنة سباحة.

دهمني إحساس مباغت بأنني لم أهتد الى صوتها. صوتها لا يشبه صوتها. صوتها مستحدث طارىء. إنها ترغب في الرحيل بأي ثمن. حتى لو اقتصر طلب الخطيب المجهول على يدها دون قلبها. قال الأب - وهو يتضاحك بعصبية محاولاً مداراة ارتباكه -: انه كان يسمع بأسرتنا منذ زمن بعيد. عائلة ارستقراطية عريقة مثقفة.. ما شاء الله. ونحن كنا من طبقة أخرى.. شبه معدمة. ثم فتحها ربك. وسافرنا الى السعودية. وسبحان مغير الأحوال. نحن صعدنا الى فوق.. فلوس مثل الرزّ. بعرق الجبين طبعاً. وانتقلنا من

«الجـوفة» الى «عبدون» و. . .

قاطعته بضحكة سوداء مريرة. قلت :

ـ أمّا نحن فـقد هبطنا طبقياً. بقينا في جبل اللويبدة حيث زحـفت عليـه عـائلات عمان الشرقـية. وهرب أبناؤه الأصليون الى تلاع العلي والشـمـيـسـاني. بعنا مـعظم أراضينا. وها نحن نجلس على الحديدة. .

أو شبه الحديدة.

انتـفضت سميرة مغضبة. وانسحبت احتجاجاً على كلامي الـذي يـفـوح برائحـة الخـمـر والاسـتـفـزاز. . كلماتهم أشـلاء مكسرة، وفي العـيون نظرات مشروخة.

ودّعـتـهـم مترنّحـاً. أولادي يختـفون هرباً من مزاجي الذي يخالطه الخـمـر فيتحول الى حالة لا تطاق. كان الشارع ينحدر باندفاعة رهيبة الى أمام.

في عـاصـمـة الرفـاق. (حين استدعوني من الجبهة) كنت أجلس في فندق رخـيص في شارع الرشيد، أعكف على الخمر وأحـدق بـالبـاب. أتوقـعـهم كل لحظة، وأنا أتصـبب عـرقـاً وأحـتـسي الـعـرق. يسـتـولي علي فـزع لم يكن يعتريني في كل المعـارك التي خـضـتها. كنت صديقا حميماً لرفيقٍ اتهم بالخيانة وأُعـدم. حدثتني نفسي بأنهم سيتهمونني بالتواطؤ معه.

وإلا . . لماذا استـدعوني؟ أصدقائي في العاصمة تجنبوني، مـثلما يتـجنب المرء مـريضـاً بالسفلس. بعد أسبوع من السكر المتـواصل، والرعب، والتـحديق بباب الغرفة التي لم اغادرها. اتصلوا. حـقـقـوا مـعي. قـالوا إن التقارير تفيد بأنني تفوّهت بكلمات خطيرة عن عـبـثـية الحروب. لم يعتقلوني. لم يقذفوا بي في مـقبرة جماعـيـة. قـالوا إنهم سـيـتـابعون التحقيق، مع أنهم منشـغلون بالحـرب ضد العدوان. وعدت الى فندقي. تسللت

الى عمان تحت ستار القذائف المنيرة الهمجية.

في عمان لم يعتقلني أحد كما توقعت. طلبوني «للدردشة» فقط ـ كما قالوا.

كان الشارع الأردني في حالة هستيرية.

***

فسيفساء

تفتحت عيناي مثل وردتين ذابلتين في عزّ الظهيرة. لم أعثر على سميرة ولا الأولاد ولا سجائري. انزلقت من السرير مودّعاً كابوسي الأسود لألج الى يقظة مظلمة. دخلت في ملابسي بسرعة خاطفة، وهربت من وحدتي الطاغية الى بيت عبدالكريم. لم يكن يسقي الحديقة. لجأ الى الحزب بحثاً عن خلاص. ثمة اجتماع حزبي في بيته. اقتحمت الاجتماع. الوقاحة وعدم اللياقة خير من الوحشة. أطلَّ بوجهه الخريفي. قال بحياد:

ـ عندي اجتماع.

دفعته برفق، ودلفت الى الصالة. وقف الجميع ليصافحوني. حييتهم رافعاً كفي في فضاء الصالة. وتداعيت على كنبة. لم أصافحهم. عادوا الى مجالسهم وهم يتبادلون النظرات. رائحة العرق العاري من الماء والثلج تفوح من فمي. سكرة الأمس لم تتبخر تماماً من رأسي. قلت بلهجة تنم على انعدام المسؤولية والوقار:

ـ تابعوا.. أنا لا أحفظ أسراراً.. ذاكرتي مخروقة.

استولى الارتباك على عبدالكريم. ثم تمالك نفسه،

وتضاحك، وقال: ان حزبهم علني ومرخص، وهو عار من الأسرار. قال وهو يتخذ مجلسه:

ـ نحن لا نعمل تحت الأرض.

تحت الأرض أسرار الجماجم وأقبية التعذيب. تحت الأرض سراديب ألغاز أحزاب لا تتنفس الأوكسجين. تحت الكثبان الرملية العربية وفي المدن. حيث المجارير وبقايا مناضلين حالمين. سبحان مغير الأحوال.

حين كان العمل الحزبي تحت الأرض وسرياً.. كنت أخوض فيه. وحين أصبح علنياً بيناً ظاهراً، اختفيت. بت شبحاً مثل تلك الأطياف التي رأيتها تسبح في البحر الميت بكامل لباسها الشرعي. تسبح؟ لا.. ولكنها تقتعد الماء. مئات من النساء المحجبات يقتعدن الماء قرب الشاطىء المزدحم بجلابيبهن. مجموعات من الشباب السمر ينزلون من الباصات بصخب. أحدهم ينقر على طبلة. سمحت للأولاد الذكور أن يسبحوا. ومنعت بناتي.. حتى رانية منعتها. ثمة ضباب رمادي خفيّ يلفّ البحر الميت. سبحان مغير الأحوال. قبل ثلاثين سنة كنت أرى بعض النساء يسبحن في قبر البحر الميت.. بملابس السباحة.

حكى الحزبيون العلنيون عن الانتخابات. عبدالكريم قال ان حزبهم «كحيان» ولا يستطيع تمويل المرشحين. منذ البداية لم نلجأ الي استقطاب وجهاء ومتمولين ورجال أعمال و«بيزنس من». ولا علاقة لنا بنظام أو جهة عربية خارجية تمولنا من تحت الطاولة. قال حزبي آخر متحمس:

ـ لا بد من الاعتماد على العشيرة. نرشح رفاقنا وإخوتنا الذين ينتمون الى عشائر ذات شوكة. خصوصاً الرفاق والإخوان الذين تكاد العشيرة أن تجمع عليهم. عندئذ..

تموِلهم العشيرة. الحد الأدنى للمرشح في محافظتنا حوالي عشرين ألف دينار. لحم ومناسف.

تساءل متحمس آخر:

- هل يخفي رفاقنا المرشحون انتماءهم الحزبي عن العشيرة؟ بعض العشائر ترغب في أن تحتكر مرشحها لا ان تتقاسمه مع حزب. وبخاصة إذا كان الحزب «كحياناً».

فناجين القهوة تدور، ورأسي يدور. سحب الدخان تلف فضاء الصالة الصغيرة. ورأسي يلف. وقفت منتصباً دون سابق إنذار أو تصميم. ومشيت نحو الباب الخارجي. أنتزع خطواتي انتزاعاً من جاذبية الأرض الجبارة. لم أودّعهم. حسدتهم. غبطتهم. حقدت عليهم. لم أودعهم بكلمة أو إشارة. لحق بي عبدالكريم قال: إن انخراطي في الحياة العامة هو السبيل الوحيد لخلاصي من دماري. قال: إنه كان يعاني مثلي.. الى ان جره اصحابه الى الحزب. لم يعد يعثر على وقت كاف للاكتئاب أو الوحشة أو الغرق في فجائع الماضي.

التفتّ نحوه بوجه شاحب. سألته:

- هل تحب سميرة؟

انتفض كالملسوع. واتهمني بالجنون، ثم رماني بالهلوسة. أدركت أن الحزب بات رسالته وهدفه وعالمه، واكتشفت أن بوصلتي معطبة فرحت أذرع شوارع الشميساني على غير هدى. أرمق المقاهي خلسة. المقاهي تهتز فيها جماجم مجللة ببشرة جلدية أشبه ما تكون بقناع يواري الموت المندفع بسرعة الومض. شفاه تنطبق وتنفرج، وكلمات تنتفخ بين الشفاه مثل فقاعات صابون بلا رغوة.. تتلاشى في الهواء، ولا تترك أثراً.

***

رن الهاتف. قالت سميرة إن الهاتف لي. تناهضتُ بتثاقل. الجدران تدور حولي، وأنا أمشي نحو الهاتف بثبات يتخلله ترنح. مديرة مدرسة رانية قالت أنها ترغب في أن تراني. ماء الحمام بارد. لم استخدم الصابون ولا الشامبو. بلا رغوة دخلت في ملابسي مبتلاً. عيناي زهرتا جمر تفتحتا في خريف رمادي كئيب. طارت سيارة الأجرة الى جبل عمان. الشوارع محدودبة، تتدفق من التلال الى وسط البلد، بطيش وتهور. ثم تتفجر كينابيع خارقة وتندفع الى قمة جبل آخر اندفاعة ثور هائج. شوارع تضطرب في الزحام. لاجئون يلوذون بعمان. عشرات الآلاف بسياراتهم وأحلامهم المتكسرة وكوابيسهم المتنقلة كمرض موروث من سلالة الى سلالة.

للمديرة وجه صارم متجهم.. مثل مزاج شعبي. اغتصبت ابتسامة وقالت ـ وهي تشير بيدها الى كنبة وتدعوني الى الجلوس:

ـ هل كنت تسبح.. ملابسك.. وشعرك.. أقصد؟

لم ألتفت الى مقصدها. سألتها عن رانية. تجهم وجهها مرة أخرى. اختلط ماء الحمام الذي يجلل جسدي ويبلل ملابسي، بعرق لزج وفير مكتنز. قالت وهي تتخذ مجلسها وراء مكتبها، وتخلع نظارتها الطبية بحصافة: إن رانية لا تعاني من تخلف عقلي. لكنها ترفض التواصل مع الكبار: المعلمات والمربيات. كأنها ترفض السلطة.. سلطة الكبار. تأبى أن ترسم شجرة حين تأمر المعلمة أقرانها أن يرسموا شجرة. تشبك ذراعيها الصغيرتين على صدرها، وتبرم

شفتيها، وتتسلل بنظرتها الى النافذة متجنبة وجه المعلمة. تشيح وتعرض وتتكلف الصمم وما بها صمم. في فرصة الغداء.. ترسم. لا ترسم شجرة. ترسم رجلاً كالشيطان.. عملاقاً ضخماً ترتفع هامته في السماء، ويمتد جسمه في المدى طأطأت رأسي. فتحت فمي لأقول، فلم أجد ما اقوله. شعرت برغبة أسطورية في البكاء. أشارت علي أن أحمل رانية الى طبيب مختص في شؤون تكيف وتأقلم الصغار.

ناولتني عنوان خبيرة ألمانية.

استقبلني الشارع بحرٍ جهنمي. كنت بحاجة الى التأمل. طارت بي سيارة الأجرة الى مسجد الشريعة في جبل اللويبدة. كان مقفراً. لسكونه رهبة محببة مطمئنة. جثوت، واستسلمت لنشيد النشيج.

***

فسيفساء

الأولاد يتفرجون على فيلم فيديو. أصوات صاخبة تندفع من داخل الشاشة. جهاز حفر يخترق جدار بيت الجيران المومىء نحو بيتنا. الضوضاء الخرافية تفتح ثغرة جهنمية في دماغي. الجرس يرن. إنه الزبال. سميرة فتحت. أنا أرقد على الأريكة. آلة حفر جدار الجيران، ترتج في دماغي. كما كان طبيب الأسنان ينخر أضراسي فتتزلزل أركان جمجمتي. جمجمتي التي تفتحت فيها زهرة دموية حين انفجرت سيارة ملغومة في شارع «حبيب الطيبي» في بيروت. كنت أعبر

الشارع قرب جامعة بيروت العربية. بغتة ارتجّ الكون، حلّقت في الفضاء. كنت أستحم بشعشعة الشمس والدماء. غسلت وجهي بالدماء. وتفتحت براعم دامية في الجمجمة. انهارت البناية التي أسكنها. لم أعثر في خضم الخراب على أسناني الصناعية. عيون تتدفق منها الدماء انبثقت في كتفي الأيمن حين قاتلت بين الخنادق العراقية . من بيروت الى البحر الى قبرص الى بغداد. . حيث الرفاق. حاصرتنا القوات الإسرائيلية في بيروت. ثم حاصرتنا أميركا في العراق. رمال في فمي. دخان يندفع الى أذني وينطلق من منخري. حروب. . واحدة إثر الأخرى. حروب أهلية، حروب خارجية. لم يتسنّ لي محاربة إسرائيل. لم يتسن لي الوقوع في غرام حقيقي. همست إن هذه الحروب عبثية. لم تؤد الى أي نتيجة. طار همسي الى قلم كاتب تقارير. الرفاق شكلوا من فورهم لجنة تحقيق. . وهربت. عدت الى الأردن، لأخوض حروبي الجهنمية في كوابيسي الليلية. الجماجم تنمو مثل اقتصاد مزدهر.

أعاقر الخمر في جبل اللويبدة. أبنائي يحتجون ثم ينتحبون، زوجتي هجرتني مثلما هاجرت فلسطين عام ١٩٦٧ . اعتبرتني قوة غاصبة. أختي تعد لنا الطعام، وأنا أعد مشروع انتحاري البطيء. النهار باهر، يغزو عيوني بألسنة الشمس السليطة. الصغيرة رانية تقف بالباب وتحدق الي. تحملق بي. في عينيها فضول ورعب. وأنا أقف على حافة انهيار جسدي ونفسي، وأحدق الى أعماقي المشظاة المتكسرة. قتلت عرباً وإيرانيين. . ولم أقتل اسرائيلياً واحداً. وأنا لم يقتلني أحد. حظّي زُحل. الخمر ملاذ. مصدر قوة مزيفة. الصلاة تدفعني الى النشيج. النشيج يغسلني من الداخل.

اشعر بأنني خفيف، والهواء هين طري. أكاد أطير.. أحلق. وأعود الى زجاجة العرق الرخيص. أحتسي كأس العرق بلا قطع ثلج. الحرارة تدنو من الأربعين. أنزف عرقاً وأشرب عرقاً. تبزغ الصور المرعبة ويتوارى الصغار. سميرة تقول :

ـ حرام عليك.. الأولاد.

وأنا أشرب واشرب ولا ألتفت اليها. أقول وأنا أشيح :

ـ تزوجي من العربي الأميركي العالم المتدين الذي لا تعرفينه.. هذه بلاد تقف على كف عفريت.

وعفريت الخمر يعبث بعقلي، ورانية تقف بالباب؛ لا تدنو؛ ولا تتراجع. اخوانها إختفوا. وعيي اختفى. حذر لذيذ. إحساس بالتماسك والكثافة والقوة. اختفى صوت الفيديو وآلة الحفر وجرس الباب. أعرف أنني سأعاني من الغثيان والندم في الغد. أقول لرانية بلسان ثقيل:

ـ تعالي.

تهز منكبيها سلباً. لا تنبس. تتراجع تراجعاً منظماً، عيناها تتحاشيان عيني. كأن عيني تعكسان مشهداً مقززاً أو مرعباً أو عورة. وهي لم تعرف مفهوم العورة بعد. أتناهض للسعي الى الحمام. تطلق رانية ساقيها لريح المروحة المزعجة. أخطو خطوتين. أتداعى على الأرض. أبول على عقبي. أحس أنني متناثر. أصبو الى الاستعاذة بمزيد من مشروب العرق دون أن أجفف عرقي.

يرن الهاتف. صوت مهذب بعيد يشير عليَّ بكل رهافة أن أراجع «الدائرة». قال :

ـ نريد أن نغلق ملفك.. أستاذ. نصف ساعة فقط.

اي ملف هذا الذي سينطوي خلال نصف ساعة. عمر كامل من الحروب مع النفس ومع الآخر. عمر كامل من

أحلام تحولت الى كوابيس.

كان الهاتف منكمشاً على نفسه مثل قطة تغفو وتحلم أحلاماً هنيئة. عرق يتصبب من جبهتي. وذبابة تحوم حول رأسي، ومروحة كهربائية عرجاء تدور في سأم، وتصدر صوتاً رتيباً، وهبات تختلط بلهاثي. ألهث وأنا أضطجع على الأريكة، كأنني أهرول وأنا راقد في مكاني.. أختنق.

***

شظية

المدير العام يرمقني بين الحين والآخر بنظرة مستريبة. حدثت نفسي قائلاً: انه مستاء، بلا شك، من هامش الحرية الواسع في «النشرة». بدون تبكيت ضمير، وبحرص على الامتيازات الجديدة، بدأت أراقب المقالات والأبحاث قبل نشرها.

لا أستطيع زعم المكابدة. بدأت باستخدام الكلمة العربية السحرية الخطرة : «بعض». فإذا انتقد مقالٌ أداء وزارة الاعلام برمته، أعدت صياغة العبارة كاتباً: «بعض أجهزة وزارة الإعلام ينقصها الأداء الرفيع». وإذا كتب احدهم عن ضرورة مراجعة أسس وقواعد منهجية وسياسة وزارة التربية والتعليم، صححت كاتباً عن ضرورة مراجعة «بعض» أسس وقواعد سياسات الوزارة . واذا كتب ثالث أن الرقابة شديدة الصرامة في دائرة المطبوعات والنشر، كتبت أن دائرة المطبوعا والنشر لا تخلو من «بعض» صرامة. وحين كتب المدير العام عن فتح ابواب وشبابيك المؤسسة للناس. نسيت أنه مقال

المدير العـام. فـشطبت الجـملة وكتبت : «ينبغي فتح كوة بين المؤسـسـة والناس». ولما انتـصب أمـامي مـتنافـخاً وهو يقـرأ مقاله، لم أقْوَ على أن أنبس. هل بدأ التدجين؟

***

فسيفساء

أذكـر انـنا سكرنا في فندق كناري. لا أذكـر كل الوجـوه. أخلط وجـوه الذين تحلقـوا حـول طاولتنا بوجوه الزبائن والندل وممثلي مـسلسل مـا على التلفـزيون الذي يتصدر قاعة الفندق. شروخ فـسـيـفـسـاء، شـظـايـا كـلـمات، مـواضـيع منشطرة. عـبـدالكريم انتـقـد مـقـالات رفـيـقـة الذي مانع تحول بعض الـفـصـائل الـفـلـسطينيـة الى أحـزاب أردنيـة. قـال إن الدولة سمحت لهم. هل نكون على يمين الدولة؟

ثم قـال إنه استشار الأستاذ بهجت في إقامة حوار وحدوي اندمـاجي بين الحـزب وبين مجمـوعـة الأسـتـاذ طاهر. ابتـسم الأسـتـاذ ابتـسـامـة مـريرة، وأورقت حـول شـفـتـيـه مـلامح اسـتنكار. ضـحكت عيناه ـ كما قال عبدالكريم. «الوامضتتان ذكاء»

همس بسخرية :

ـ هـل تـريد شـهـادة مـرور وطنيـة مني؟ لا يا بني. أنتم تملكون الخبرة، وهم يملكون المال. سـوف تصـبـحـون موظفين عندهم.

ثـم انقطع خيط ذاكـرتي. فـسـقطت الأصـوات والصـور والحـوارات مـتناثرة على الأرض. أتذكر اعتراض أحدهم :

ـ لنتحدث عن الشعر والجنون والعشق. الأستاذ نتاج القرن الماضي. ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين. قرن ما بعد الحداثة.

***

شظية

لم يعد أي شيء يتنامى في هذا الوطن المبعثر بين المحيط والخليج. الشخصيات الروائية تومض وتوحي وتومىء، لكنها لا تتطور.

عنوان مقالة: «واشنطن تعيد العراق الى العصر الحجري». ما الذي يتطور؟ الكل المبعثر يندفع نحو الوراء.

ابن المناضل الماركسي الذي سجنه رفاق القبيلة في عدن يشيح بوجهه عن لحية ماركس ويطلق لحية شبيهة بلحية «الخميني». أقلع عن إدمان الكحول والدخول في بنطال قصير، حيث كانت ساقاه المتناسقتان تنسابان.. فيصفر الفتيان سخرية، ويتضرج وجه الصبي استحياء. صار ينتحب في ركن قصي من أركان مسجد «دار القرآن» في حي نزال. يدخل في دشداشة، وينضم الى حلقات الذكر التي يقودها الشيخ حازم أبو غزالة أو الشيخ يعقوب. ينتحب وهو يستغيث بالله. سمفونية نداءات استغاثة، تبدأ خافتة في غرفة شحيحة الضوء، ثم تتصاعد: الله.. الله.. أغثني.. لا تعاملني بما يليق بي بل بما يليق بك. يا ظاهر.. يا باطن..

وتنشج الجماعة نشيد الإغاثة واليأس والإيمان. فتنهمر الدموع الحبيسة منذ ألف عام. ويتذكر صورة استاذه وهو

يلفظ أنفاسه في المنفى الصحراوي، حيث اختفى الحرس وسياراتهم. وتهرع زوجته بشعر أشعث الى الهاتف تتصل بالقيادة ، تستغيث فيضج صوت الضابط المكتوم:

- خلال دقائق تصلكم سيارة الإسعاف. والأستاذ والرفيق يتشبث بالحياة بأظافر حديدية. لكن سيارة الإسعاف لا تأتي. والحرس اختفوا واختفت معهم سياراتهم. والمنفى النائي المقفر يتحول الى ملعب للموت. تتصل مرة أخرى بالهاتف، أصابعها ترتعش.

وصوت الضابط الآلي يكرر:

- سوف تصل سيارة الاسعاف بعد لحظات .

وقبائل الرفاق الماركسيين تستنفر فوق الجبال الجرداء والسهوب القاحلة، تضع آخر اللمسات، لتعد للغزو العقائدي.

الأستاذ يتداعى على الكنبة. يفقد صوته. يلوح بيده ويشير بأصابعه طالباً سيجارة. تمتنع الزوجة تقول بإصرار:

- سوف تأتي سيارة الإسعاف . لن يتركوك لتموت هكذا!

وتمد بصرها عبر النافذة المخلخلة فلا تبصر سوى سراب القفار وصمت القبور الموحشة.

***

شظية

صور لا تكتمل. مزق صور. هذي هي بيروت تتشظى، والعراق ينشطر، وعمان خليط أحزاب وقبائل ومهاجرين.

لا شيء يكتمل. الإنسان ربع فلاح وربع بدوي وربع متمدن وربع مجهول. التلفزيون الفيديو، ألعاب الكمبيوتر، نثرت الغبار على الكتب. الناس يقرأون الصحف بسرعة. الإعلانات اولاً، ثم صفحة النعي.. ثم يمرون بالزوايا المملة. العابرون في الشوارع المزدحمة مع العراق قلباً وقالباً، شتموا أميركا، وبعضهم ذهب الى بغداد وضرب على صدره أمام السيد الرئيس وقال بتجهم:

- سيادة الرئيس المناضل المجاهد حفظه الله .. أطلق رصاصتك الأولى.. ونحن في الأردن سوف نضرب بعد شهقة (من انطلاق الرصاصة) كل الأهداف الأميركية الثابتة والمتحركة!

وحين اندلعت الكارثة كتموا صمتهم، ورفعوا العقيرة.

وحين قرأوا في ٦ أيار ١٩٩٣ أن سعر الدينار العراقي «الطبعة» السويسرية قد تلاشى، جن جنونهم وشتموا مصرف الرافدين ورئيس.. مصرف الرافدين!!

الولد الذي يدرس في مدرسة «التيراسنطة» التبشيرية الخاصة، يلح على والده الناصري المتقاعد:

- خذني الى جامع الشريعة.. أرغب في أن أصلي.

كيف تنتشر هذه العدوى على الرغم من كل المضادات الحيوية؟

***

شظية

اقـتعدت أرض حديقة بيتي. الشمس تكر على المدينة مثل قـبـائل همجيـة تنهب الظلال. كنت أتنفس بحـرية، أتخطف الأكـسـجين، أنهبـه. ثم أمـارس رياضـة التثاؤب. يبزغ وجه سـميرة. تتـهـالك على مـقـعد قريب. لم تنبس بكلمة. لم تلق تحـيـة. كـانت سـاهمة. الشمس تلح على الأسطحة والرؤوس والشـوارع. مـر عـابر سـبيل. خطواته تخفق بلا وقع. أسندت وجـهي الى راحـتي. طعنت الصـمت الثـقـيل. قلت دون أن ألتفت:

- مرحباً.

لم ترد. ظلت مـشـيحة. لمحت رعشة تسري في بدنها فتهز جـسـدها هزاً. قـالت إنها تشـتـهـيني. مـا رأيت وجهها، إنها تشـيح وتعـرض. حدثتني عن سمير. هالها أنه لا يشعر بالثقة والطمأنينة والقـوة الا حين يحتسي الخـمـر.. أو حين يلجأ الى الصلاة. قالت:

- أعرف.. سوف ينتحر يوماً ما.

لعنت عـبـدالناصر وأحمد سـعـيـد وغـورباتشـوف وجورج بوش.. قـالت وهي تهز منكبيها وتقلب شفتها السفلى بحياد:

- هؤلاء.. كلهم.. خـذلوه. كلهم حطمـوه. سمير لا يسـتطيع مع الهزيمة صبراً. جملته العصبية ركيكة.

كنت أنكث التراب بعـود خـشـبي ضئيل. رأسي يميل الى الأمـام فـتـتلقفه ركبتاي. قلت إنني أشتهيها ايضاً مثلما أشتهي الخـوخ وحـقـوق الإنسـان. قـامت بتـثاقل، ودلفت الى البيت صامتة.

***

شظية

تقرير:

قال الرفاق أعضاء المكتب السياسي إن الثلاثاء والأربعاء عيد. وإنهما مخصصان لزيارة الاقارب. أما الخميس.. فسوف نطوف جماعةً لزيارة أقطاب البلد. تساءلت عن زيارة فروع الحزب. قال الأمين العام وقد دارت عيناه في وجوهنا، ودارت ملعقته في كأس الشاي (.. وكنا نجلس على كوكب يدور حول الشمس.. دون شعور بالغثيان):

- الخميس والجمعة.. نخصصهما لزيارة بعض الفروع.

***

كانت الفروع تنتقد عدم إقدام المكتب السياسي على صياغة آلية تنظيمية للاجتماعات. تعود معظمهم، منذ أيام زمان، على تلقي التعليمات من عمان حيث توجد القيادة. حين قلنا لهم: إننا نعيش القرن الحادي والعشرين والديمقراطية، وحين ركزنا على أن يبتدعوا هم صيغة تنظيمية، وآلية تناسب مرحلة العمل العلني، شعر معظمهم بالضياع وعدم الأمان. لقد أدمنوا تنفيذ الأوامر والاتباع. وها نحن نمنحهم فرصة الإبداع واجتراح صيغ جديدة تتلاءم مع معطيات القرن القادم. وتركنا لهم حرية صياغة الأشكال التنظيمية.. احتجوا. قالوا إنهم لم يتعودوا على ذلك (معظمهم حزبيون سابقون في أحزاب كانت شبه سرية وتقليدية).

بعد إلحاحنا على محاكاة صيغ القرن القادم. وتذكيرهم

بأنهم كانوا يتذمرون من احتكار عمان للأحزاب. وإصدارها «الفرمانات» للأقاليم، اجتهدوا، اخطأوا، كادوا يغرقون.. وبغتة رأيناهم «يعومون» وحدهم، دون ملعقة عمان، ودون تدخّلها في التفاصيل: لقد تعلموا العوم (خيراً) بطريقتهم الخاصة.

***

شظية

اندفع سمير الى الشارع العام. بعد أن بعثر أثاث الصالة بقوة زلزالية. نبش العتمة بعينيه المتوهجتين. ظلام باهر، ووقع خطا تنبض في قلب الليل الكبير المصاب بجلطة الأسرار. انتفض جسده نفضة الحمى. ثم فزع الى سيارته وطار بها في شوارع جبل اللويبدة. دس شريط خطاب لعبدالناصر. راح يضرب بقبضته على المقود ويصرخ:

ـ لماذا اختفيت؟

دار في شوارع الجبل الصغير، ثم انطلق صوب دوار الداخلية، وانفتل بسيارته باتجاه الجامعة الأردنية. استخرج شريط عبدالناصر من مسجلة السيارة. ودس شريطاً يبث تعليقاً نارياً لأحمد سعيد.

كانت الدموع تنهمر من عينيه. تذكر كيف «أنهم» أجبروه على استنكار سياسة عبدالناصر في إحدى الصحف أيام عز الخلاف الرسمي معه. سبحان مغيّر الأحوال. بات بوسعه اليوم أن يمجد عبدالناصر من خلال مقالة في جريدة الرأي أو الدستور. حين انفتل بالسيارة حول «دوار صويلح» وضع

شريطاً لعبدالحليم حافظ في مسجلة السيارة كان يغني «يا حبيب الملايين» قال في نفسه:

ـ الإسلام خلاصي. لكن لماذا شتم ذلك الشيخُ عبدَالناصر؟ لماذا أعدمتَ «سيد قطب» يا عبدالناصر؟ يتساءل سمير قبل أن ترتطم سيارته بقوة بسيارة واقفة على يمين الشارع، ويخرج سمير من السيارة ضائعاً مشتتاً في غفلة من أمره.

***

شظية

تقرير:

فاحت رائحة التغيير الوزاري. عشرات الوجهاء وبعض الحزبيين اندسوا في بدلات فاخرة، وعقدوا حول أعناقهم ربطات فخمة، (وقبل ذلك كله استحمّوا، ورشوا مبيدات العرق تحت الإبط) ثم جلسوا الى جانب جهاز الهاتف يتوقعون رنينه الحامل على صهوته أخباراً سعيدة.

مئات المستوزرين. بعضهم ألح للصحف المحلية بأنه مرشح كاسح ماسح للاستيلاء على وزارة. وبعضهم دفع معنوياً (حفلة عشاء) كي ينشر أصحاب الصحف أن اسمه يتردد بين أسماء قائمة الوزراء.

***

شظية

تقرير :

إنه المؤتمر العلني الأول للحزب الشيوعي الأردني. «الشيوعي» يعقد مؤتمره في المركز «الملكي». اندفع «نجوم» المجتمع الى الصف الأول. تدافعوا بالمناكب: نواباً، أمناء أحزاب، وزراء، وزراء سابقين متهمين بالمشاركة في حكومات فاسدة. لغة ما بعد الحرب الباردة وانهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي. . تعاني من بلبلة واضحة. ثمة شيوعيون يرغبون في التحالف مع الإسلاميين الذين يقاتلون الإمبريالية. وثمة شيوعيون يطالبون بسحل الإسلام السياسي باعتباره قوة ظلامية. وتحت صورة جلالة الملك امتدح ممثل الحزب الشيوعي السوري قيادة القائد حافظ الأسد. وأضاف قائلاً إنه مع العراق وضد حفر الباطن. وألقى أحدهم كلمة عن العلاقة الحميمة بين الشيوعية والإسلام الثوري.

قلت لسميرة حين تسللت من المهرجان: إن الأمس كان واضحاً : ثمة شيوعية وثمة امبريالية رأسمالية. وثمة حركات تحرر وثمة رجعية. أما اليوم فقد تبدد اليقين.

مالت عليّ فانهمر شعرها الأشقر على وجهي ومنكبي. قالت إنها ستحبني لمدة ستة أشهر. وإنها سوف تعرض عني بعد ذلك، لأنها مزاجية. وأكدت وهي تشفط شفتي أنها تلعب معي. قالت إنني بارد. وإنها ستقدح الشرر في جسدي. إنه مجرد رهان . شعرها اسود تارة، أشقر تارة أخرى.

فسيفساء

في المدى الرملي الشاسع، حيث الأشلاء والمدافع المعصبة. رأيت شرايين تجري على الرمال كالثعابين، وأحشاء تزحف على الأرصفة، كأنها تتفادى السيارات المسرعة ـ رأيت عيوناً مقتلعة من محاجرها. رأيت بهاء الهول. إصبعاً مبتورة بلا خاتم خطوبة. وإصبعاً أخرى بخاتم خطوبة. رأيت الكابوس كاملاً عصياً على القسمة أو النقص.

***

شظية

تنهد المحقق وطلب فنجانين من القهوة. قال إنه خبير في الناس، وإن أمثال عبدالكريم يدمنون السياسة. قد يقلع أحدهم زمناً. لكن.. ما إن تتغير الظروف أو يعتريه السأم وتستجد مستجدات حتى يعود الحزبي المحبط المتقاعد الى بحر السياسة. قال المحقق وقد شعت عيناه بضحكة ساخرة:

ـ على كل حال. الأحزاب اليوم مرخصة. لا شيء يمنعك من العمل السياسي العلني.

***

في تلك الأيام. أيام عودته المبكرة الى الأردن، غادر عبدالكريم شارع العبدلي، وهو يضحك في سره من نبوآت المحقق. وأقسم أنه لن يعود الى الخوض في الحياة العامة حتى لو كان هذا الخيار مسموحاً به من قبل السلطة.. وها هي نبوءة المحقق تتحقق. أي إدمان وحنين؟

شظية

لعن اليوم الذي أعلنت فيه الدولة عن النهج الديمقراطي. قال إنه يوم أسود. قال إنه اعتاد العمل تحت الأرض طوال ثلاثين سنة. كان يجلس في رابطة الكتاب المهجورة. سكرتير الرابطة ينقر على آلة الطباعة وهو يشكو من العمل العلني، وأنا أصغي. قال بعصبية: إن الخروج من تحت الأرض والعمل السري الى العمل العلني القانوني أشبه ما يكون بخروج أهل الكهف الى الحياة. الضوء يستفز عيونهم. إنهم بحاجة الى تعلم لغة أخرى جديدة. عليهم أن يتعلموا كيف يقطعون شارعاً يزدحم بالسيارات. وهم الذين كانوا طوال الأعوام الماضية يعيشون تحت الأرض، في كوكب لا شارع فيه ولا سيارة. وأعلن عن نيته الانشقاق عن الحزب. قال: إن القيادة تحتكر الأضواء. وان المعسكر الاشتراكي انهار، وإن الأرض لم تعد كروية.

حدقت الى ملامحه. لقد شاخ بسرعة الومض منذ إعلان تبني الديمقراطية.

عينا سكرتير الرابطة على الآلة الكاتبة وأذناه عندنا. علقت أصابعه:

ـ تك.. تك.. تك.

***

شظية

كلما أقبل سمير على الخمر اجتر الماضي. بدأ أصحابه،

يسأمون من حكاياته المكررة المعروفة. بعد معركة فضائحية بين سكارى أحد الفنادق الأردنية، حسم أمره وقرر أن لا يقترب من الخمر إلا في البيت. يدلف الى غرفة، ويغلق الباب، ويخوض في بحر الخمر. طرقات هينة على الباب. ينهض بخطى متثاقلة ويفتح الباب. رانية تقول له على استحياء:

- تلعب «طماية تنخباية»؟

يدفع الباب بقدمه في وجهها. يصرخ:

- خلي اختي سميرة تلعب معك.

المعلمات يضغطن عليه. يمضي لمقابلتهن بين الحين والآخر. تقول معلمة إن ابنته الصغيرة تعاني من مشاكل في التواصل مع الكبار. وإنها تحدس أنه سبب المشكلة. يبتسم ابتسامة دبلوماسية لبقة. ويفكر في الهروب الى فندق «كناري» ليغطس في الخمر.

يعود الى البيت منهكاً. الأولاد يلعبون بالحاسوب التلفزيوني. يأمرهم أن يقلعوا عن الكمبيوتر، ويفتحوا التلفزيون العادي. الابنة الصغيرة تضع أصابعها في أذنيها ولا تلتفت، كأنها لن تسمع. كأن الكلام غير موجه لها.

***

شظية

قال لي:

- يا رفيق اسمي محمد «سين» وقد سجلت في الحزب. وتركت عنواني وهاتفي ولم يتصل أحد، فلماذا أهملتموني؟

سألته عن عنوان سكنه. كان شعره جعدياً، والسمار

ينبيء أنه شبه بدوي. سألته عن عنوانه ومكان سكنه. جحظت عيناه وانتفخت أوداجه وقال بذهول :

ـ قلت لك في بداية حديثي: إن اسمي محمد «سين».

أوغلت في الغباء فقلت :

ـ يا أخي الكريم ورفيقي العزيز. سألتك عن عنوانك لا اسمك.

رفع حاجبيه دهشة وقال بإلحاح :

ـ قلت لك إنني محمد «سين».

أدركت من فوري أنني إزاء حالة معقدة، تقوم أساساً على سوء تفاهم. قلت :

ـ يا رفيقي يا حبيبي.. سألتك عن مكان لا عن اسم.

انفعل الرفيق وقال :

ـ حين أقول لك اسم عشيرتي ينبغي أن تعرف أين تسكن. فاسم العشيرة دلالة على المكان.

***

فسيفساء

«القبائل أشد بأساً وشوكة من الأحزاب المشظاة عثرت على نفسي في السرفيس الذي يهبط الى وسط البلد. كأنما كنت تائهاً أبحث عن نفسي، ثم وجدتني في السرفيس. وانتبهت بغتة الى رانية تجلس الى جانبي الأيمن. ثمة امرأة تجلس الى جانبي الأيسر. كنا نحتل المقعد الخلفي. لاحظت يافطة «ممنوع التدخين» قرب السائق. رجل صامت ضخم يجلس قرب السائق. السائق يدخن ويمنع الركاب من التدخين.

يحتسي كوباً من الشاي وهو يسوق. انحسر فستان المرأة التي تجلس الى جواري. استرقت نظرة الى فخذها. كان مشوباً بسمرة صفراء ذهبية. شدت ثوبها فسترت الفخذ. لعلها انتبهت الى نظرتي التي لحست فخذها بلسان البصر البذيء.

ملت نحو رانية. سألتها في يأس وخبث:

ـ ماذا سنشتري من السوق؟

اكتشفت أنني لا أدري ما الذي دفعني الى ركوب السرفيس . واصطحاب رانية.

رانية لم تلتفت ولم تقل ولم تومىء. التقت يدي بيد المرأة الذهبية الجالسة الى جواري. . صدفة. افترقت يدانا بانتفاضة من لسعة تيار كهربائي. غمغمت :

ـ آسف.

لم تسمع، ولم تلتفت. قلت في سري إنني أهبط الى السوق لأشتري كتاباً من مكتبة الشروق او من كشك أبي علي. وإلا لماذا هبطت الى السوق الذي لم أهبط اليه منذ عام بكامله؟

الهواء ساخن، والقيظ يصهر الرؤوس والحجارة. ثمة رائحة عرق بشري تغزو أنفي، ورائحة أقدام نتنة. لا بد أن السائق ينتعل «زنوبة».

حين ترجلنا عند مطلع طلعة سينما الخيام، عثرت علينا نشق طريقنا في بحر متلاطم من العابريق. أمسكت بيد رانية ومضيت باتجاه كشك أبي علي. حانت مني التفاتة فلمحت سينما فلسطين في «الدخلة». تذكرت هروب شلتنا من المدرسة الى السينما. تذكرت دعوتي لسامية المطلقة أم الأولاد الخمسة. كان ذلك في سينما «الرينبو» حيث توجد خلوة في «البلكون» . أركان شبه معزولة في خلفية الصالة.

كنت يافعاً وحيياً. لا .. هي التي دعتني. وفي عتمة الصالة بادرت وتسللت يدها نحوي. كنت أرتعش أُصغي الى اللغة المبهمة السرية الدائرة بين المشاهدين في العتمة. أذكر أنها دعتني الى ملهى «سيزار» بعد السينما. وهو الملهى الوحيد - حسب علمي - في جبل اللويبدة. رفضت الرقص. فقالت بثقة:

- بعد الكأس الثالثة سوف ترقص.

وهذا ما حدث فعلاً. كأنها كانت تتنبأ.

نظرات شاردة ووجوه تشي بالسأم وغياب اليقين. شوارع تتدفق بسرعة خاطفة طائشة، وعابرون يمشون بأناة وبطء، كأنهم يمشون في أحلامهم. جاوزتني سائحة شقراء تلبس الجينز الأزرق الذي شرب عليه الدهر، شلة مراهقين يلاحقونها. تذكرت نانسي، وومضت في ذاكرتي صورة سهام. كان جسدي موالياً لجسديهما. أنام عند هذه أسبوعاً وأقول للأخرى إنني راحل الى نيويورك في مهمة حزبية. واعايش تلك اسبوعاً آخر وأقول للأخرى إنني مسافر الى شيكاغو. كنا في واشنطن. شعور شيطاني أسترجعه الآن. ازدواجية الولاء لامرأتين، واحدة عربية تسكن في شارع ٢٤. والثانية أميركية تعيش في شارع ١٨ . حالة فصام غرامية. أي خائن أنا؟

بغتة تناهى الى مسامعي صوت متردد مرهف، تلفتُّ حولي.

ارتطمت عيناي بزحام من بشر، يعون أنهم مصابون بمرض الانقراض الخبيث. العجز في عيونهم المبحلقة. الصوت الرهيف لا مصدر له. شدتني رانية من يدي. صافحت حسن ابو علي بيدي الأخرى. عاتبني :

ـ وين ما بتبين؟

كـان يضع الكوفـيـة ويخفي عـينيـه وراء نظارة. انه صـوت رانيـة، انها تكلمني مبـاشرة لأول مـرة. كانت ترفع رأسها ذا الشعر الأشقر الجعدي وتقول :

ـ «دنيا الألعاب»؟

فـغـرت فـمي دهشة. نسيت حسن ابو علي. تسمرت في مكاني، ثم كدت أطير فرحاً. إنها تكلمني. قالت :

ـ أنت قلت لي . . سآخـذك الى محل . . ألعاب . . كنت تشتري منه ألعـاباً وأنت صغير.

باغتتني الذاكرة. تذكرت سبب هبوطي الى السوق.

قـال حـسن أبو علي إن الناس مـا عـادوا يقـرأون الشعر. وإنهم يفـضلون الصحف والتلفزيون والمجلات الخفيفة.

***

فسيفساء

أيام الجـامـعـة كنا نتـمـشى أنا وهي في شـوارع حـبـيبة . أتولدن. أقول لها :

ـ قولي لي كلمة حلوة.

تبتسم بسمتها الحيية وتقول ضاحكة :

ـ عسل .

أقـطب . تدخل الشـمس في عـيني. وألاحظ طالبـاً يعبر وهو يضم كـتبه الى صدره بدلاً من فتاة.

أقول ببلاهة :

ـ لماذا أحبك هكذا؟

تقول بسخرية بريئة:
- يجمعون على حبي. أنا إنسانة محبوبة. أستحق أن أُحَبْ.
أيامها كان العالم واضحاً: أسود وأبيض. شرق وغرب. نساء ورجال.

***

فسيفساء

هو شخصية عامة - تمثل أدوات الماضي، نفى حدوث مصالحة وطنية بين النظام والمعارضة. قال: إن نشطاء المعارضة، وبعض الذين كانوا هدامين محزبين، عادوا الى رشدهم، ووافقوا أخيراً على شرعية النظام «الذي كنا نحميه».
شاب متحمس يترصد مفاهيم ولغة القرن القادم سأله :
- كيف تتكلم عن الديمقراطية .. وقد كنت من رموز عهد الأحكام العرفية؟
أظلم وجه الزعيم السياسي، وبحلق في الجمع الذي حشده من حزبه كي يضغط على السائل. سأله بملامح صارمة. لا تضحك للرغيف السخن :
- الى أي حزب تنتمي أنت؟
المواطن الخبيث سأل الزعيم المتجهم :
- هل تحقق معي يا سعادة الزعيم ؟
بغتة هاج ساكن مشجعي الزعيم وحاولوا إسكات السائل

وكتم صوته.

***

فسيفساء

أدفع ابنتي رانية الى الخبيرة الألمانية. أما أنا فأراجع طبيباً نفسانياً لمعالجة إدماني واكتئابي المزمن وذاكرتي المرضوضة.

تقاطعت الخطوط.. الطبيب النفساني وصف لي أقراصاً لانفصام الشخصية، وما كنت أعاني من هذا المرض. والخبيرة الألمانية أشارت علي بالتواصل مع رانية عبر اللعب لا اللغة الشفهية. قالت: «حاورها بأصابعك».

ألعاب «البزل» والأفاعي والسلالم. كانت تمتنع عن الاستجابة للوهلة الأولى. ثم تتسلل أصابعها الصغيرة بتردد واستحياء، بتّ أُخصّص لها وقتاً. الخبيرة الألمانية سألتني عن زمن مولدها.

اكتشفت لهولي انني لا أعرف. سألتني عن صفها، اكتشفت مرة اخرى جهلي. لا أعرف إن كانت في الصف التمهيدي أو الأول ابتدائي. رمقتني الخبيرة الألمانية بنظرة مستنكرة لو نطقت لقالت:

ـ أنت لا تعرف شيئاً عن أولادك.

***

فسيفساء

طرت بها الى «دنيا الألعاب». لم أودع «أبو علي» قلت لها

إن أمي كانت تشتري لي ألعاباً من هذا المحل. لم يعرفني صاحب المحل الذي لم يتغير. اشتريت لها لعبة. خلعت ذراعها من فورها وألقتها على الأرض. قالت: أريد هذا. ومدت يدها الصغيرة مشيرة الى بندقية بلاستيكية تصدر أصواتاً مزعجة. لم أفهم. صاحب المحل اغتصب ابتسامة مجاملة. دفعت ثمن اللعبة والبندقية. حملت البندقية دون اللعبة. في الخارج كانت البنايات شاحبة وقديمة تومىء نحونا من الجهتين. والعابرون يلعبون لعبة القط والفأر مع السيارات حين يجتازون الشارع. رانية لم تشكرني. لم أتوقع أن تشكرني. لوحت بيدي لسيارة أجرة. باغتتني قائلة:

- سوف أقتلك بهذه البندقية إذا شربت بيرة.

ولم تضحك. كانت ملامح وجهها محايدة. بدت وكأنها تردد جملة لا تفهمها، ترديد ببغاء. لم تكن تميز طبعاً بين البيرة والعرق. في المساء جمعت الأولاد. حكيت لهم عن الحروب التي خضتها، عن فظائع الحياة. لم يفهموا صلة ذلك بكأس العرق. سميرة حملت زجاجة العرق. قالت بانقباض واقتضاب:

- تفضل انتحر كما يحلو لك.

رانية لم تصوب فوهة البندقية اللعبة نحوي كما هددت. لكنها وقفت بالباب تراقبني صامتة. ثم همست بأذن أخيها: متى سيكسر الكأس؟

اختفى أخوها. تسللت هي الى غرفة نومي. اقتفيت أثرها. كانت تطلق «نار» بندقيتها على صورتي وصورة أمها. وعادت رانية تعتصم بصمتها المستغلق من جديد.

***

فسيفساء

المقاهي لفظت عبدالكريم، الشوارع نبذته، رواد فندق الكناري ارتحلوا. . فاستغاث بالحزب. بماذا أعتصم أنا؟ لماذا لا تقذف السماء في قلبي نور إيمان العجائز فينشرح؟

***

فسيفساء

حين كنت في السوق مع رانية تصببت عرقاً. رفضت أن تضع يدها في يدي. كنت أرتعش خوفاً. تمشي أمامي مشية مستقلة، ثم تتلكأ وتمشي ورائي. كنت أراقب السيارات المزدحمة وأردد في سري أنني في عمان لا بيروت. وأنني ورانية في أمان : لن تنفجر سيارة ملغومة. طفل شقي مر بخاصرتي كالبرق. ودس دبوساً في بالون يحمله. انفجر البالون محدثاً فرقعة صاخبة. سقط قلبي. للوهلة الأولى حسبت انني في بيروت، وأن سيارة ملغومة انفجرت. واننا، انا ورانية، مجرد أرواح تتفرج على أشلائها. انطباق باب بقوة كان يفزعني. أتصبب عرق الهول. الصواريخ والقذائف في طريقها نحونا، إنها على بعد وهلة. ستنتفض الشوارع وتنقض علينا البنايات القديمة المومئة. كشك «أبو علي» كومة جماجم متراكمة على الرصيف. نسمة باردة شقت صفوف الهواء الساخن، انطلقت من مصدر مبهم ونقرت على ظهري . على قميصي اللزج الملتصق بجلدي. ردتني من غفوة يقظتي الذاهلة الى أرض الواقع. من الأمام صفعتني هبة ساخنة على رأسي

المزلزل بصور الأشلاء والدمار والدماء والغبار واللهب والأشباح والأصوات المستغيثة والحماسية.

رانية حطمت بندقيتها، وعادت تلعب مع أخيها على كمبيوتر الألعاب العجيبة. رأس ثعبان له ذيل طويل يفتح فاه ويلاحق مجموعة متناثرة من الجماجم، أقصد من الأزهار.

كانت تحب قطتها الصغيرة. سمتها لوزة. كانت تتحدث اليها. وتتحدث الى نفسها وتتحدث الى أخيها، وأحياناً الى سميرة. أما أنا وكل الكبار الآخرين.. فكانت تقاطعهم مثل طفل حردان.

الخبيرة النفسية الألمانية ألقت المسؤولية على عاتقي. قالت:

ـ أعتقد أنك لا تمنحها الوقت الكافي، أنك لا تلعب معها. ثمة لغز معقد في العلاقة بينكما.

وأشارت عليَّ باستدراجها الى اللعب دون حوار شفهي في البداية.

***

فسيفساء

نجلس في فندق الكناري في شارع مدرسة «التيراسنطة» في جبل اللويبدة. قلت لعبدالكريم بلهجة تنم على ذعر:

ـ أعتقد أن حبال أفكاري بدأت تنقطع.

كنا أربعة نعاقر الخمر في صالة الفندق. ثمة زبائن يرتدون «الدشاديش» ويتفرجون على التلفزيون. ونساء ملغزات يثرن التساؤلات والرغائب الحسية.

علق الشاعر :

ـ هذا مقطع لا بأس به لقصيدة نثر : «حبال أفكاري تنقطع».

أضف الى ذلك :

«وحبال صوتي تنشر غسيل أعماقي الباهرة البذاءة».

كانت أعماقي متصدعة. ثمة ما انكسر في الأعماق وتناثر شظايا فسيفسائية.

بعد انضمام عبدالكريم للحزب. لم يعد يتردد على فندق الكناري ذي الجدران المتهورة الناهضة على لحظة الانهيار.

حين بدأت أتحدث عن حرب الصحراء المزدوجة وحرب بيروت والحزب تثاءب الشعراء مرات. وقالوا إنهم ملوا من سماع هذه الاسطوانة المشروخة. اكتشفت لهولي أنني أحدثهم عن هذه الحروب كل ليلة.. بالإضافة الى الانقلابات.

***

فسيفساء

قال عبدالكريم إنه تورط في لعبة السياسة من جديد بعد طول انقطاع. كان بوسعه أن يرفض كل معطيات الواقع من موقعه كشاعر متمرد حر. وها هو يلعب دور البراغماتي الآن. يبحث عن حلول وسط، يضطر إلى اتخاذ مواقف إيجابية وحلول وسط.. بعد أن كان يقف وسط صالون نخبوي.. ويبول حرداً واحتجاجاً وهو ثمل. لقد فعلها مرة وسط باص يقل مثقفين من مهرجان جرش الى فنادقهم في عمان. كيف تكون علاقة المثقف بالسلطة في مرحلة انفراج ديمقراطي؟ حين يحدثه مدير المؤسسة عن ضرورة توفير منبر للمثقفين العرب الذين لم يطحنهم سندان القمع، ولم تطرقهم مطرقة البترو ـ دولار؟!.

***

فسيفساء

أضعت سلسلة مفاتيحي. صرخت في وجه سميرة، كنت مضطراً الى نقل رانية الى مركز تأهيل الطفل. زعقت. عثرت عليها في جيبي.

ذعر في عيني رانية.

***

فسيفساء

اتصلت زوجتي السابقة. قالت إنها تحتاج الى مبلغ من المال. وإن زوجها الجديد بات عاطلاً عن العمل.. ضغوط، ضغوط، ضغوط.

***

فسيفساء

وساطة عبدالكريم وظفتني مستشاراً للمدير العام. لم يستشرني في شيء على الإطلاق. غرفتي تجاور الحمام. لا بل كان يستشيرني (اربع مرات في اليوم) كان يمر ببابي، يسألني ان كان الحمام مشغولاً. ويستشيرني في الدخول الى الحمام أو عدم الدخول. فأجيبه مرة إن الحمام مشغول، وأنصحه بعدم الدخول. وأجيبه مرة أخرى بأن المرحاض شاغر وبوسعه الدخول.

في هذه الوظيفة الجديدة كنت أكشّ الذباب. حتى انني فكرت باستيراد ذباب للكشّ. ضجري بلغ مسامع المدير العام. فأرسل مدير مكتبه بعشرات الأوراق الرسمية لمراجعتها. وأنا لا أملك فكرة عن المعاملات البيروقراطية!

***

فسيفساء

لم يستشرني المدير العام اليوم سوى مرة واحدة. قلت له: أن الحمام مشغول. لم يسألني. اكتفي بنظرة استطلاعية متسائلة وإشارة من اصبعه الى باب الحمام. قفل عائداً الى مكتبه. ثم بزغ بعد دقائق. وفتح باب الحمام هذه المرة دون أن يلقي تحية ودون أن يستشيرني ان كنت انصحه بدخول الحمام أم لا؟ انتابني شعور حاقد. تمنيت: لو كان المرحاض مشغولاً. لكنت قد تشفيت به. ورمقته بنظرة شامتة لو نطقت لقالت:

ـ لماذا لم تستشرني.؟ الحق عليك .. ها أنت ترى أن الحمام مشغول. لو استشرتني لما عرضت نفسك لهذا الحرج.

لكن المرحاض كان شاغراً. دخله المدير العام دون استشارتي هذه المرة. فكرت في تقديم استقالتي.

***

فسيفساء

«ثمة ما هو مشترك بين سميرة ورانية. كلتاهما تتجنبان «لقاء العيون» كل ليلة، قبل أن أنام، أحاول استدعاء ذاكرتي. ماذا فعلت طيلة النهار؟ أسترجع صوراً مجزأة مشظاه، مضرجة بالشروخ، وأصواتاً غير مترابطة.

فسيفساء من الشظايا وملامح انشطرت. مثل رجل استيقظ بغتة من منام ثقيل، فعجز عن استرجاع تفاصيله كاملة.

أتوجس ضيفة وغيظاً من صمت رانية وسلبيتها. تجتاحني رغبة عاتية بأن أهزها أو أصفعها، حين ترفض التواصل معي.

***

صرت أتردد على مكتب الحزب الذي انضم اليه عبدالكريم. بعض اجتماعاتهم كانت مفتوحة لكل من هب ودب في المقر.

***

تقرير :

دعا الحزب الأمناء العامين للأحزاب الأخرى الى اجتماع في مقره. توافد معظم الأمناء العامين. أمين عام حزب عبدالكريم تمنى على المجتمعين مناقشة نقطة واحدة فقط. قال: إن الخضروات والبيض في «الغور» بسعر التراب. وإن الحزب يقترح شراء كمية من هذه الخضروات والبيض، وشحنها الى الشعب العراقي المحاصر.

ضرب على «طاولة القيادة» بقبضته وقال:

- وهكذا نضرب عصفورين بحجر؛ نشتري من مزارعينا، وندعم العراق.

بغتة انهالت عشرات الاقتراحات، لا علاقة لها بالموضوع. البعض طالب بمظاهرات، آخرون طالبوا بعرائض وبيانات استنكار. وضاع الاقتراح المحدد في زحمة المزايدات النارية.

***

فسيفساء

لست أدري بدقة أي بحر. لا أتقن السباحة. سميرة وعبدالكريم يخوضان بين الأمواج. سألت رانية مدارياً ارتباكي:

- أي بحر هذا؟

لم تلتفت، ولم تومىء، اكتفت بالتحديق في العدم. أشباح في ضباب البحر. أكره الرحلات وشم الهواء. الخبيرة الألمانية أشارت علي بأن اصطحاب رانية الى البحر او الغابة مفيد. اي غابات وأي بحار؟

ينبغي أن أراقب سميرة وعبدالكريم. أطرافهما. عيونهما. حركاتهما. الرسائل الخفية السرية عبر العينين.. والمسدس متوفر دائماً!

***

فسيفساء

فسيفساء مشظاة. عالم تخترقه ملايين الشروخ. لا يقين سوى الأطياف. الحواس مشوشة. والذاكرة مرضوضة. وشوارع بيروت المحدودبة تفضي الى شوارع عمان المنهارة من رؤوس الجبال، الى شوارع البصرة المنتفضة رفضاً وهولاً. ورانية تراقب هذا الزلزال المدمر والأرض التي تميد.. على شاشة التلفزيون.. وتصفن.

***

فسيفساء

زرت عبدالكريم في مكتبه. لم يكن فخماً. ناولني عدداً من النشرة.

قال :

ـ ألا تلاحظ الفرق بين مستواها حين كان رئيس تحريرها من أبناء المدرسة العرفية. . وبين مستواها الآن.

سقط ذقني على صدري. كنت منسرق القوى ولم أنبس. قال كأنما يبرر:

ـ لم تطلب أي جهة مني أن أستكتب الكتاب حول موضوع محدد. حيز الحرية المتاح لي في الإشراف على الخط العام للنشرة لا حدود له.

صمت، ثم رفع باطن يده ليمسح العرق المتصبب على جبينه. حدق عبدالكريم إلي بعينين أطل منهما قلق يشوبه رعب. سأل :

ـ لماذا لا تعلق؟ لقد توغلنا في لعبة الديمقراطية ووافقنا على قواعدها. . إذن . . ينبغي أن نناضل في سبيل احتلال مواقع حساسة. نحن جميعاً في سفينة الوطن. لن نترك أبناء العهد العرفي أو أصحاب الآراء المتعصبة يحفرون ثقوباً في باطن السفينة دون معركة. هل ترغب في أن نغرق جميعاً ونغرق الوطن باسم العفاف والطهارة والنأي عن مواقع في السلطة؟

أخذ وجهه بين يديه. أصابعه صفراء؛ يفرط في التدخين. ويشعر بالذنب. قال: إن المسؤولين في الدول

العربية كانوا يرددون أن موقفهم من أي دولة اجنبية تحدده سياسة هذه الدولة من القضية الفلسطينية. اليوم صار لزاماً علينا أن نحدد موقفنا من أي دولة حسب موقفها من الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان.

أطلقت ضحكة مجلجلة. قلت إنه تحول، بعد انضمامه الى الحزب، الى حيوان سياسي. اجتماعات، وثرثرة، ومظاهرات، ومؤتمرات. والمشاركة في جنازات وأفراح.

سألته:

- لماذا لا تحكي لي عن علاقتك بالمرأة. أي امرأة. هذا، فقط، الموضوع الذي يليق بالثرثرة.

تضرج وجه عبدالكريم، ثم احتقن، ثم أظلم. رفع سماعة الهاتف وطلب فنجانين من القهوة مع زجاجة من الماء البارد.

اغتصب ابتسامة مرتبكة، رفت على شفتيه ثانية ثم تبددت. قال إنه يعشق امرأة، لكنه لا يستطيع أن يبوح لي بأي تفصيل عن هذه العلاقة. ما كنت أدرك عندئذ أنه يقصد سميرة. سألني عن حالي مع المرأة. شعرت انه يرمي الكرة الى مرماي، اعترفت له أنني أخجل من النساء. فاذا اغتصبتني امرأة على الرغم مني، شعرت بالعجز الفاضح نتيجة للمشروب والأقراص المسكنة. بدأ يحدثني عن حبيبته الغامضة بمتعة تكاد تفوح منها رائحة سادية. بغتة أحسست أن كلامه يمر بأذني مرور الأشباح ولا يلج اليها. بدت كلماته متقطعة. بذلت جهداً خرافياً في ربط المبتدأ بالخبر. دون جدوى. داريت هذه الحالة الغريبة من عدم الاستيعاب بهزات متتالية من رأسي. كأنما أوافقه على ما يقول. حانت مني التفاتة نحو الجدار الأيمن فإذا بي أراه يحدودب ويومىء

ويميل نحوي. تذكرت جدران ومقاهي وشوارع وقمح ووجوه وليل لوحات «فان كوخ» المتموجة المتزلزلة العصية على الثبات. كل شيء يتحول، ولا ثابت.

بغتة انتشلني من يقظتي المروعة دخول نائب عن الدائرة «ث»، كان صاخباً. قبلني.. غير أني لم أعرفه. ملامحه مجهولة. رأيتها في زمان ومكان محددين. غير أن ذاكرتي لا تسعفني. طبع قبلات على وجه عبدالكريم ايضاً. اكتشفت أنه ترك على وجنتي آثار عرق لزج حين التصق وجهه بوجهي. اتخذ مجلسه على كنبة، وقال لعبدالكريم ـ دون مقدمات ـ إنه لا يرغب في تبديد وقته ووقت عبدالكريم. القصة وما فيها، أنه سمع أن عبدالكريم يعرف أحد مفاتيح الجالية الأردنية الكويتية التي هُجّرت الى الأردن بعد حرب الخليج الثانية. وأنه يرغب في أن يولم وليمة لهذا المفتاح. شبك ساقاً على ساق وقال إن معلوماته تفيد بأن مائة ألف أردني ـ فلسطيني من الذين هجروا الكويت استقروا في منطقة الدائرة «ث».

بغتة اجتاحني إحساس بأنني عاجز عن متابعة كلام النائب. أرى وجهه وحركة شفتيه.. ولا أسمعه. أسمع عبارات سرعان ما تنقطع. وعلى نحو مفاجىء التفت النائب اليّ وقد تهللت أساريره وسأل:

ـ لم نتعارف. الاسم بلا صغرة؟

تلعثمت رأيت اسمي طيراً ينط هنا ويقفز هناك، ويحط أخيراً على طرف لساني دون أن يتخطى طرف اللسان الى الذاكرة. اعترفت أن نسياني لاسمي وهلة خاطفة أثار في نفسي رعباً عجائبياً. انقذني عبدالكريم ابراهيم، تدخل من فوره وقال وهو يشير إليّ: سمير ابراهيم.

جاء المراسل يحمل صينية القهوة. سألني النائب إن كنت مسجلاً في الدائرة «ث». تفحصت وجهه ملياً، ثم قلت إنني لم أسجل بعد، لأنني عدت من العراق قبل أسابيع. أشرق وجهه ومد يده فربت على فخذي. قال بصوت متجهم متكلف:

- العراق .. الصوت الأخير الذي قال للهيمنة الأميركية: «لا».

العراق رمز البطولة العربية الخالدة. والنظام العراقي هو النظام الوحيد الذي تبقى من حركة التحرر العربية. إنه النظام الوحيد الذي أبكى سكان تل أبيب بصواريخه المزدوجة.. هيء .. هيء.. هيء.. انه النظام الوحيد الذي يقتص فوراً (ودون محاكمات بلهاء لا فائدة منها) من المتآمرين والجواسيس والتجار والسماسرة. آه.. كم نحتاج احتياجاً ملحاً الى إجراءات صارمة، لسحل وإعدام كل من يطالب بحقوق الإنسان في العراق.

نقل ساقه اليمنى وشبكها باليسرى. نفخ وهو يقول:

- قضية حقوق الإنسان قضية روج لها الإعلام الامبريالي.

قمت منتصباً كرمح اصطدم بجدار. ترنحت قليلاً، ثم غادرت المكتب دون كلمة وداع أو إشارة سلام. كان عبدالكريم يدرك أن كلام النائب هججني. لكنه لم يحاول استرضائي للعدول عن انسحابي من الجلسة. كنت أدرك أنه متعاطف معي، لكنه دبلوماسي الى حد الضعف. فهو لا يملك الوقاحة الوفيرة لطرد النائب. وهو يعرف وأنا أعرف، أن النائب كان يمقت النظام العراقي ويرجمه بالفاشية قبل الحرب. ولكن هستيريا الشارع الأردني المتعاطف مع العراق

دفعت النائب الى تبديل مواقفه. فبعد أن صرح بأن احتلال الكويت جريمة، اكتشف أنه «فحط». ينبغي على النائب ان يجاري شارعه الانتخابي. انتظر مرور أسبوع. وأذاع بياناً يؤيد فيه دخول العراق الى الكويت، معتمداً على ضعف ذاكرة الناس.

***

فسيفساء

كنت أطل من النافذة المبقورة حين رأيت عبدالكريم يمسح درج بيته بالشامبو. تضاحكت. هتفت:

ـ هل تحمم الدرج؟

قال دون أن يلتفت:

ـ سوف يزورني المدير العام.

السأم يدمرني. مشيت على الشارع المحدودب، والسماء منهمرة، والبيوت متراكضة نحو الارتطام، مستغلة سقوط المعسكر الاشتراكي، وتدمير العراق.

وانفتلت الى بيت عبدالكريم.

كان يرتدي بذلة رسمية داكنة فاخرة. وربطة عنق أنيقة منسجمة، تومىء الى أن عبدالكريم كان قد ورث ذائقة أرستقراطية. الباب المومىء مفتوح. رأيته يجلس على أريكة في الصالة. عيناه على ساعة الجدار. قلت:

ـ مرحبا.

فلم يرد ولم يلتفت. رفع رسغه وقال إن المدير العام

وعده بزيارة. وإنه تأخر. قلت إنني سأسليه وأقتل وقت الانتظار معه، وحين يأتي الضيف الكبير سوف أنسحب. رن جرس الهاتف، انتفض عبدالكريم كمن مسه طائف من الجنون. الرقم غلط. البذلة الفاخرة بدأت تتجعد مثل شعره. ذبابة حطت على أنفه. لم يطردها. كان قلقاً مضطرباً. ينقل بصره بين ساعة الجدار وساعة الرسغ. قام ونفخ على طاولة صغيرة غير مغبرة. نفخ عليها على سبيل الاحتياط، ولقتل الوقت أيضاً.

التفت إليّ وأمرني بمغادرة بيته فوراً حين تبزغ سيارة المدير العام. لم أعلق ولم اومىء. حدقت أنا أيضاً الى ساعتي. قام عبدالكريم وضغط على زر التلفزيون. لم نتبادل الكلام أبداً. تبادلنا نظرات مستريبة يائسة. قال عبدالكريم كأنما يحدث نفسه :

ـ لقد تأخر.

نمّت عبارته هذه على صيغة رجل يستغيث بلباقة. أدركت أنه يستجدي جواباً مطمئناً مني. غير أني تجمدت في مكاني؛ لا اقول ولا أميل.

قرص عقربا الساعة رنة الساعة العاشرة ليلاً. عبدالكريم يجلس في مكانه مثل «أبو الهول» منذ ما بعد الظهيرة. بكامل لباسه الرسمي الأنيق. كنتأاتردد على المرحاض بين حين وآخر. وهو جامد في موقعه لا يكاد يتنفس. ثم صار يقوّم كل خمس دقائق ليبول ويغسل أسنانه.

حين قرص العقربان الحادية عشرة فأرسلت الساعة أنيناً حاداً، نهضت متثائباً. دنوت من عبدالكريم ونصحته أن يخلع ملابسه الأنيقة ويدخل في منامته وينام. انتفض وصرخ في وجهي وقال كلاماً لا أذكره. وإنما تذكرت صوت المروحة

الكهربائية المزعج، وطنين ذبابة فضولية، ولزوجة عرق الصيف القائظ.

***

شظية

لم أعد استطيع قراراً. طلب مني المدير العام للمؤسسة شبه الرسمية (وهو مثقف ليبرالي متميز) أن أشرف على تحرير مجلة تصدرها الدولة. قلت له وأنا أشبك ساقاً على ساق:

ـ هل تسمح لي بأن أنشر دراسات ماركسية وقومية ووجودية دون تدخل منك؟

امتلأ فمه بالضحك وقال:

ـ لا سقف لدينا.. ولكن لا تشتم الدين.

كل الذين كانوا ممنوعين من الكتابة.. استكتبتهم. انحرفنا عن معلقات الجاهلية، وصرنا نكتب عن المواقف السياسية والأدبية والفكرية.

يوماً ما، بزغت أميرة مجهولة في مكتبي. كان معها المرافق الأبدي وحارسها الملازم. جلست أمامي بعينين منكسرتين. وأخوها نسر يلتزم الصمت ويراقب. ناولتني القصة. قرأتها.. كانت متهافتة. كدت أن أقول لها إنها حين تكتب دون وجه اخيها.. سوف تكتب افضل. غير أنني خفت من ردة فعل شقيقها. تأملت منديلها وجلبابها، وشاربي أخيها وعينيه الزجاجتين وذراعيه المتأهبين للمصارعة. قلت:

ـ سوف نوصل كتاباتك الى هيئة التحرير.

وكنت أعلم أنني لن أوصلها، وأنني سأعدم ما كتبتْ من فوري.

***

فسيفساء

شعرها ليلي وعيناها نهار باهر. أحبها من بعيد الى حدّ بعيد. صديقة سميرة. ما إن تنقر على الباب بقبضتها الرقيقة، حتى ينتفض قلبي مثل مراهق. تقول لي «عمو» فتجرحني بنية طيبة.

مرة جاءت لتزور سميرة دون ان تحدد موعداً. لم تكن سميرة في الدار. دعوتها، ترددت، تلكأت، ثم حسمت أمرها ودلفت، تنتظر سميرة. جلست اليها. اسمها سهام. قالت إنها تشعر بالحنين لجبل اللويبدة. كانت ترفع ساقها اليسرى وتتشبث بها بيديها. هب شعرها في ريح غامضة غير مرئية. أبرقت عيناها. اعتقدت أنها قالت شيئاً.

قلت بارتباك، إنني لم أسمعها. وسألتها عما قالت. قلبت شفتها السفلى وهزت منكبيها بلا مبالاة، وقالت إنها لم تقل أي شيء.

اعتراني فزع رهيب. تمليتها بنظراتي، فلم أعرفها. ملامحها تلاشت وبهتت في ذاكرتي. سألتها عن الاسم الكريم. بوغتت ونترت وجهها الى الوراء. خمنت أنني أداعبها.

ردت:

ـ أنا سندريلا.

بغتة تذكرت أنها سهام صاحبة أختي. قلت لها :
ـ إنني أتذكرك منذ أيام الطفولة. هل تذكرين..
ونسيت ما أحاول تذكيرها به. تلعثمت. داريت اضطرابي. سألتها إن كانت تحب الشاي أم القهوة..؟ استندت بمرفقيها على حجرها وأراحت ذقنها على كتفها. قالت إنها لم تحب الرجل الذي تزوجته.

***

فسيفساء

قالت سميرة إنني كنت وقحاً وفجاً ليلة أمس مع عبدالكريم. لا أذكر أنني رأيت عبدالكريم ليلة أمس. سألتها بقلق :
ـ ماذا قلت ؟
ولتني ظهرها وقالت إنني كنت سكران.. كالعادة. وعدائياً كالعادة.
واختفت متوجهة الى غرفتها، حيث يلعب أولادي. هرعت خلفها مثل ثور هائج. قبضت على جديلتها. لم تصرخ. لم تنبس. دفعتها نحو الجدار بقوة. ارتطم رأسها بالحائط ثم تهاوت على الأرض. كانت الجدران تتعانق والسقف يضم الأرض الى صدره. وصوت المروحة ينوح. الأولاد اندفعوا نحوها،. رفعوها. كنت أقف مشدوهاً كالمسحور. رانية وقفت في اخر الدهليز. راقبتني بعينيها الواسعتين. لا تطرف ولا تساعد إخوانها. إنها تتأملني.
سميرة لم تئن رغم الوجع. تذكرت أن صاحبتها المستهترة

درست في أميركا. وأنها تعاطت المخدرات. ثم لجأت الى الإيمان بالدين الإسلامي لتميز هويتها عن هوية المهيمن. صارت تدخل في جلباب وتجلل وجهها بالنقاب، وتتمشى مزهوة مستفزة في شوارع واشنطن.

لسميرة أعصاب حديدية. سميرة غير سوية. إنها تحتمل ما لا طاقة لبشر باحتماله.

سعيت الى بيت عبدالكريم، بلغت شفير اليأس الأسود الانتحاري. إنه الخواء والفراغ والملل. حدثتني نفسي بأن أطلب منه تنسيبي الى الحزب. ضربت الباب بقبضة قوية. لم يكن عبدالكريم في البيت.

كان يقتل الوقت في الحزب.

لا مقهى ولا ناد ولا جمعية تقتل الوقت في عمان. لماذا لا أنضم للحزب إذاً؟ لماذا لا أنتقل من موقع المتقاعد الخريفي الى ملعب النشاط الحزبي المرهق.

لم لا؟

***

فسيفساء

... كما أنني لم أهبط الى السوق، وسط البلد، منذ سنة كاملة. كان وسط عمان مركز تجمع الناس، وورشة اجتماعية، نقطة الاستقطاب. ثم تناثرت عمان في عصر مشمشية النفط في كل الاتجاهات.

عبدالكريم عثر على خلاصه في الانضمام الى حزب جديد.

يقتل الوقت بالاجتماعات الحزبية. فلا وقت للسأم والضجر والاكتئاب والتفكير الوسواسي بالانتحار. أنا لم أعد أحتمل إحباطاً جديداً. كيف أنضم الى حزب أردني محدود بعد أن كنت عضواً في حزب يمتد في طول المشرق العربي وبعض مغربه؟

عبدالكريم وافق (هو وكل الأحزاب والفعاليات من أقصى اليمين الى أقصى اليسار) على الولوج في «العبة» الديمقراطية. قبل الديمقراطية عرضت عليه رئاسة تحرير نشرة المؤسسة شبه الرسمية، فاعتبرها إهانة. أما اليوم فهو يرأس تحريرها ويحولها من نشرة صفراء محافظة الى نشرة تحررية قومية تقدمية. ترى ما هي العلاقة بين المثقف المعارض شديد الحساسية وبين سلطة انفراج ديمقراطي؟ هل يلعب دوراً إيجابياً ويحتل موقعاً حساساً فيه هامش معقول من حرية اتخاذ القرار، أم يرفض الموقع باسم الطهارة الثورية ويفسح في المجال لرجل آخر محسوب على عقلية عهد الأحكام العرفية؟

عبدالكريم قلق متردد. يسألني النصيحة. هل يقدم ويقبل أم يحجم ويرفض؟ أنا لاحظت أنني نسيت سؤاله. طلبت أن يكرر السؤال. تقلص وجهه. ثم كرر السؤال. هززت منكبي وبرمت شفتي السفلى. أقلقتني ظاهرة نسيان سؤاله لوهلة. ثم تناسيت الموضوع. لكن هذه الظاهرة وظواهر أخرى بدأت تتكرر تدريجياً.

***

نصحتني الخبيرة الألمانية باصطحاب رانية الى مركز العناية بالطفل. قالت: إنه قائم قرب صويلح. أخذتها الى هناك بعد أن أصرت على اصطحاب إخوانها جميعاً. استقبلتنا المرشدة

النفسية الأردنية بابتسامة مشرقة. اعتذرت على اصطحاب الأولاد.

قالت :

- مش مهم.

لغة الحوار بين رانية والمرشدة هي لغة اللعب. المرشدة التي اطلعت على تقرير الخبيرة الألمانية، أكدت أن رانية ضد السلطة. وبخاصة سلطة الأب أو المعلمة. قالت: إن الوسيلة الوحيدة للوصول اليها تكمن في لغة الأيدي.. أي اللعب، لا اللغة المحكية. إنها لا تستجيب لأي سؤال شفهي. لكنها، بعد تلكؤ وتردد، تعكف على التواصل مع الآخر عبر ألعاب يدوية مثل «البزل» و«الدومينو» ولعبة الأفاعي والسلالم. لاحظت المرشدة أن رانية تتبادل الحديث مع أقرانها وتتواصل، لكنها ترفض الاستجابة لمبادرات الكبار الشفهية. المرشدة قالت :

- أصل المشكلة يكمن في علاقتك أنت معها.

شعرت بالإثم ولم انطق أو أومىء. سألت المرشدة عن ثمن «الجلسة» فأخبرتني ان المؤسسة مجانية خيرية. لمعت دمعة في عيني. ودهمني إحساس غريب بالولاء لهذا الوطن.

***

فسيفساء

نعرف أنه لا يرغب في قصر أو سيارة فارهة أو عشيقة. لكننا نجهل أنه لا يرغب في شيء سوى الموت بهدوء.

شقة نظيفة ضيقة. اثاثها بسيط لكنه يليق بصاحب ذائقة

فنيـة. من غـرفـة في هذه الشقة الضيقة ذات الجدران المتقاربة كـالـعـشـاق والـسـقف الواطىء الذي يوشـوش الأرض، أطلّ العـمـلاق ذو الجسد الضامر، كان رفيع العماد. وجهه جمجمة شـاحبة. بدت عيناه وكأنهما نهبتا كل الحيوية والقوة التي كانت مـشـتـتـة في الجسد. عينان تبرقان، تشعان حيوية وقوة وضياء يكاد لهيبـه أن يحرق وجـهينا. كان العملاق منكمش الجسد، محـدودب الـظهـر. لكننا تمليناه بنظرات منحـازة مـتـواطئة مع الـذاكـرة. رأيناه عـمـلاقـاً يكاد رأسـه ينطح سـقف الصـالة، وممتـداً كأن الجـدران المتـاهمسـة العـاشـقـة المضـمومة لا تتسع لمنكبيه الجبارين.

جلسنا بين يديه مـثل تلميذين مذنبين. ارتبكنا. امتلأ فمه بالضحك بعد أن اتخذ مجلسه بتثاقل. لم نسأله. قال إنه يفضل التزام الصـمت، لأسـبـاب تتـعلق بسلامة أولاده المنتشرين في شـتى العواصم. لم نسألة. قال إنه سيخصنا نحن الاثنين فقط بالجـواب. كنا من حـوارييه قبل عشرين عاماً. لم نسأله. قال إن الـتـدخـين ممنوع في حضرته. قـال وهو يلوح بيـده الناحلة المعروقة:

ـ تعلمان عن وضعي الصحي.

لم نسأله. فـتح كل منا فاه ولم يجد ما يقوله. انعقد اللسان ولم نسأل . لم ندخن. قـال إن جوابه على سؤالنا مرير. قال :

ـ سيصدمكم جوابي.

لم نسأله. . مـاذا تبـقى من حلمك أيها العـمـلاق الناحل الـذي لا يـكـاد يـرتفع عن الأرض لانكماش جـسـده المهـدود بعمر مديد ثقيل الوطء؟

انحنى إلى الأمام. وأستند بمرفقيه على مسند الكنبة. كان يهمس همساً.

تـلفت أنا وعـبـدالكريم حـولنا مـتـوجـسين. لم نر سـوى الجـدران الشاحبة، والصمت الصاخب في هذه الضاحية النائية القريبة من القلب.

قال إنه لا يرغب في أن يصدمنا, أطلق ضحكة خافتة ثم أنشأ يسـعل بقـوة ارتج لها جـسده الرهيف الواهي. لم ننبس. كنا نبـحث عن كلمات مجاملة قـد تفـتح باب الحـوار السحري وتـخطف ارتبـاكنا. لم نعثر على كلمات مجاملة تليق بهذا اللقاء الأول بعد غياب طال.

تنحنح عـبـدالكريم، وتململ في مجلسـه، وقال بلهجة تنم على حماقة اجتماعية:

ـ أهلاً بك في الأردن. الحـمد لله على سلامتك. لم نعرف بوجـودك هنا سـوى أمس الأول. ترددنا. تناهى الى مـسامعنا أنك ترغب عن رؤية الناس و. .

قاطعه الأستاذ العملاق قائلا:

ـ لم يبق من حلمي النبيل سوى أمنية شخصية.

تاهت نظراته السـاطعـة. استردها بقـوة خـفية خارقة، ثم قـال إنـه هـرب من بلده الى بيروت. . فطارده القـتلة. بيروت غابة. لاذ بعاصمة عربية أخرى. قال:

ـ عنّ لي أن أهرب من الغاب وقانونه الى حديقة غناء.

شرد ذهـنـه الى الـداخل. كأنما انشـغل باله بغـتـة بصـورة مذهلة.

أحـسـنا أنه بوغت بذكـرياته التي اجترها زمناً سـحـيقاً. كـيف تبـاغـتك صـور مكررة حـاضرة خـالدة في الذاكرة؟ إنه الجرح، أو ربما الألم. . العصي على الزمن.

اشـتـعلت عيناه فألقت بشعاعها الباهر شعشعة على الوجه الذابل.

قال :

ـ الجماعة في القطر العربي الذي لجأت اليه رحبوا بي. استقبلوني استقبال الأبطال والأباطرة والفاتحين.

أخذ نفساً عميقاً، تنشق هواء ساخناً يواري ذرات غبار خفية. أطلق سعالاً متقطعاً. دهمتني رغبة عارمة بكأس عرق. وكنت أنزف عرقاً. تناولت منديلاً ورقياً ومددته نحوه. أشار بيده سلباً ثم دفع يدي دفعة هينة رفيقة. عادت نظراته الساطعة لتتجه الى العدم. بدا وكأنه يتملا شيئاً ملموساً محدداً. تابعت نظرته فاذا بها ترتطم بجدار يزاحمنا. ظلت نظرته معلقة هناك، على الحائط. استرقت النظر الى عينيه مسارقة. بدا وكأنه يمد بصره نحو بحر شاسع. لا بحر في عمان. ثمة جدران فقط. باغتني صوته. كان ملمس صوته ناعماً. قال إن الحكومة العربية التي رحبت به أنزلته في منزل أشبه ما يكون بقصر. وهيأت له سيارة فارهة وأخرى للمرافقة والحماية. لم أطلب منحاً فخمة. أنتما تعرفان زهدي.

نفخ حسرة وقال :

ـ ثم طالبوني بالاتصال بمن تبقى من جماعتي في بلدي الأصلي.. كي أعدّ لانقلاب.

باغتته عبارته. حدق فينا بعينين تنكران ما سمعته أذناه من أقواله. كأنه لا يكاد يصدق حقيقة ما قاله. كأنه يسمع عبارته هذه أول مرة. أغمض عينيه كأنما يرغب في ان لا يبصر صوراً تورق في الذاكرة، وتتراءى له في البال. بدا عليه الاعياء. قال أن المرض الخبيث كان يفتك به. وأنه يرغب في التقاعد واعتزال الحياة العامة.

ضغطوا عليه. هرب الى لندن. لندن أسعارها كاوية.

امتنع عن نشر مذكراته في صحف. عرضت عليه مبالغ كبيرة مقابل هذه المذكرات. قال إن اولاده متناثرون في الدول العربية. نشر مذكراته يعرض الأولاد للخطر. قال إنه لا يخشى على حياته.. إنما على حياة أولاده.

بعض حوارييه وأبناء عائلته كانوا يرسلون له مبالغ صغيرة.

لكن حياة لندن لا تطاق. فردت خريطة الأرض كلها، قال، ولم أعثر على بقعة صغيرة ألوذ بها سوى الأردن، تصوروا! الوطن العربي يضيق برجل مثلي.. جاوز التسعين أو الثمانين.. لم أعد أذكر.

كان الأستاذ العملاق الضامر المنكمش النحيل يرغب في ان يسكن غرفة صغيرة في حي ساكن. لم يعثر على غرفة صغيرة في هذا الكون الشاسع. فالجميع يطالبونه بالثمن. وبعض البلدان الغربية موحشة وكاوية الاسعار. الأمن فيها غير عصي على كواتم الصوت. ترى أي نظام، من مجموعة الأنظمة التي عارضها، يرغب في إسكات إنفاسه؟

شعرت أنني بحاجة ملحة الى التدخين واحتساء زجاجة بيرة واستخدام المرحاض. غير أنني تمالكت نفسي. رمقت عبدالكريم بنظرة جانبية، كانت الدموع تملأ عينيه، يغالبها، ويتغلب عليها. قال الأستاذ العملاق وهو يعتدل في مجلسه إنه لا يحتاج الا الى غرفة (مترين في مترين) غرفة تتسع لسرير واحد وكنبة وطاولة. ولم أعثر على هذا الحيز في الكون كله. الكوكب الأرضي استعصى عليّ. هذا ما تبقى من أحلامي النبيلة الفارعة. لا وحدة عربية ولا تحرير فلسطين ولا اشتراكية. فقط. . ركن صغير الوذ به كي انفق آخر سنتين من عمري فيه بهدوء وسكينة. أريد أن أموت بسكينة. أما

الأحلام التي بشرت بها ودعوت اليها في الأربعينات والخمسينات فقد أورثتكم إياها.

لن أدخل في التفاصيل. لكني تلقيت من «عمان» إشعاراً يقول ما معناه إنه بوسعي الاستجارة بها دون مقابل أو ثمن.

ألحَّ عليّ إحساس بأن «المثانة» سوف تنفجر إن لم أسع الى الحمام. وحدثتني نفسي أنه بإمكاني تدخين سيجارة أيضاً في الحمام. عنَّ لي ان أسأل الأستاذ العملاق عن موقع الحمام. غير أن قوة جبارة خفية جمدتني في مكاني وعقلت لساني. العرق يتصبب من جبين عبدالكريم. لا يجففه. يتفصد من جبينه ويتسلل الى عينيه فيختلط بدموع تتأبى على الانكساب والسقوط.

سألنا العملاق الضئيل البدن إن كنا نرغب في فنجان قهوة. وقبل أن نجيب قال بصوت متحشرج:

- أرغب في أن أموت بهدوء.. دون ضجة. هذا ما تبقى من أحلامي وأمنياتي. أرجو أن لا تطلعا أحداً على عنواني أو رقم هاتفي. أريد، من العالم، أن ينساني.

بدا عليه الإعياء. تناهض بتثاقل وغمغم:

- ينبغي أن أرقد. أرجو أن لا أكون قد خيبت آمالكما. ألا يحق للمرء أن يموت بهدوء.. دون ابتزاز. وفي شقة لا تتجاوز مساحتها حجم ذرة على الخريطة؟

انتفضت دون وعي أو تخطيط مسبق. عثرت على نفسي أقول:

- لكن العالم بحاجة الى أبطال مثلك. لا تتقاعد أو تستسلم. بوغت بما تفوهت به. تأملني العملاق بنظرة متفحصة. غمغم وهو يشيح ويغادر الصالة الصغيرة متجهاً الى غرفة النوم:

ـ تمسكوا بتجربتكم الديمقراطية بالأظافر والأسنان.

ثم اختفى وتركنا في الصالة. كنا مثل مسمارين انزرعا في لوح خشبي. لم نتبادل النظرات أو الكلمات. قمنا في وقت واحد دون اتفاق مسبق. مشينا نحو باب الشقة ننتزع أقدامنا من الأرض انتزاعاً. أشعلت سيجارة بينما كان عبدالكريم يفتح الباب. هبطنا الدرج بيننا جدار من الحرج. أنا أنتظر سماع تعليقه وهو ينتظر سماع انطباعي.

استقبلنا الشارع بقيظ لاهب. مشينا صامتين. وانعطفنا نحو الشارع الرئيسي في الشميساني. رأينا مراهقين يتسابقون بسياراتهم الفخمة، وفتيات يمضغن اللبان ويتلفتن.

لم يلتفت عبدالكريم نحوي. وأنا كنت مشيحاً بوجهي. لم ننبس. تابع عبدالكريم بنظره المراهقين المتحلقين هنا وهناك (بعضهم قص شعر رأسه على طريقة المارينز).

غمغم باكتئاب:

ـ أراهن أنهم لم يسمعوا بالأستاذ العملاق.

كانت أصابعي ترتعش. انثنيت نحو الهورس شو. تهالكت على أول مقعد. وطلبت زجاجة من البيرة. رماني عبدالكريم بنظرة مستنكرة، وابتعد دون تحية أو كلمة وداع. اجتاحني إحساس طاغ بضرورة تحطيم عقلي. ابتلعت خمسة أقراص مهدئة لتتفاعل مع الخمر. بدأت أثرثر مع جليستي الوحيدة.. الوحشة.

***

شظايا الفسيفساء

مدفونة في الصالة المهيبة المطلة على صخب الشميساني. تتأمل الصخب ملياً ولا تسمعه. تعد لنفسها فنجان نسكافيه. وتراقب الشوارع المكتومة واللوحات الراعبة. وجوه وجماجم مشروخة متفسخة. أجساد أشلاء، وأشلاء أجساد.

عيون تهجر محاجرها وتجحظ لتبحلق في انشطارات الدنيا بذهول وهول.. وجوه صامتة تملأ الدنيا صخباً؛ احتجاجاً على فوضى الحروب الداخلية وفظاعة الحروب الخارجية، وعبث طراد خيل خشبية تراوح مكانها.

لم يكن الهاتف يرن إلا لماماً. الدكتور أسعد يتصل ليطمئن. أسعد مغرم بالاطمئنان على حسن سير أمور عالمه المرتب.

وهي وحيدة في مكتبها الصغير المتحشرج المطل على صالة العرض المقفرة الموحشة ذات الوجوه المشظاة والعيون الجاحظة المحدقة الى الهول. وتحتها صخب سيارات الشميساني المكتوم.

***

شظايا الفسيفساء

في المساء، حين ينبطح سمير إبراهيم، أو سمير عبدالكريم، أو عبدالكريم سمير (ما الفرق؟) على وجهه حاضناً بطحة العرق. تضع سميرة يدها في يد رانية الصغيرة، وتتمشيان في متنزه اللويبدة. لا تتبادلان الحديث. تذرعان

المتنزه بلا حوار.

عيونهما تلتقي، تتحاور بلغة بينة مبهمة واضحة.

تتبادلان المواساة، تحت شجرة سرو متعبة غبراء. عيون فضولية تتساءل تتضرج بهول الدهشة.. ولا جواب.

***

خاتمة شظايا الفسيفساء المتفسخة

تتفسخ شظايا الفسيفساء. لا أدري أين أنا على وجه التحديد. لكن يبدو لي أنني في غمرة حفل كوكتيل أو استقبال. الأسباب معروفة؛ ثمة أعراس وثمة احتفالات بأعياد خاصة. أجهل المناسبة. كيف جئت الى هنا؟ الكؤوس تدور مع الرؤوس.

حانت مني التفاتة فرأيت ملامح امرأة قابلتها ذات مساء. عصرت عصارة ذاكرتي. ومضت فجأة في بالي: إنها أختي سميرة. قال أحدهم بخبث: إن الحفلة أقيمت من أجل أهداف انتخابية. فهذه دائرة المثقفين والعلمانيين والمضادين والخائفين من الاتجاه المتدين. البلد باتت دوائر، وأنا أدور، وأشعر بالغثيان.

صاحب بيتي وبيت عبدالكريم ارتطم بي. صدمني بكرشه أولاً، ثم وجه الي صدمة برائحة فمه النتنة. أخبرته بصراحة أنني لا أملك الآن إجار البيت. امتلأ فمه بالضحك. قال وكرشه يهتز انه ليس هنا لجمع الإيجارات. وانه منشرح الصدر لأنه انتسب الى حزب «وطني» تمثله الوزارة الجديدة. أخبرني باعتزاز أن خمسة وزراء في هذه

الحكومة ينتمون الى حزب واحد.

آنست تداعياً في ملامح وجهه. حدثتني نفسي بأنه بات جزءاً من الماضي، وجهه لا يرغب في الاعتراف بهذه الحقيقة. عيناه المضمختان بالرغائب (ابتداء من المناصب، مروراً بالملذات الحسية، وانتهاء بمحاولة بعث الماضي والتعلق به، وطرح مؤسسة العشيرة مقابل مؤسسة الحزب العقائدي).. ماذا أقول؟ لماذا أطلقت لساني في صاحب البيت.. ابن الباشا؟ وماذا عن هذا الزاهد في الرغائب؟

تلفت حولي. طلاسم ملغزة. بزغ وجه صارم، وقال إنه أتى لفوره من الشميساني. واحتج قائلاً: إن المراهقين زادوها.

ظهيرة الليل تصهر الرؤوس. والخمر تعبث بالألسنة. مالت عليّ امرأة مجهولة وقبلتني من وجنتي. قالت بلهفة:

ـ لن أنسى الضغينة.

يممت وجهي صوب الشميساني. مراهقون من جيل آخر يحاكي الأفلام الأميركية في المقهى قال عبدالكريم إبراهيم: إن البياتي يتمركز في الهورس ـ شو. وإن الشعراء الثلاثة يتحلقون حول طاولة في فندق الكناري. وفي عز الليل هرعت الى مروان ميني سوبر ماركت؛ لأقتحمه وأنسى لماذا دلفت إليه. ذكرني صاحب المحل أنني أشتري الخمر من عنده عادة.. فتذكرت.

***

اتصلت سميرة، قالت: إن الدنيا حر، وإنها ترغب في ممارسة الحب معي عبر الهاتف. أحسست أن عمان أوصدت الأبواب في وجهها دوني.

***

انتظر سائق المدير العام ولكنه لم يزره. وانتظرت أنا.. بلا جدوى. كنا نكنس درجات السلم، ونأمر اولاد العصابات بالتواري، لأن حدثاً مهيباً سيحدث... ولم يأت.

***

انتفضت سميرة نفضة الحمى، فتمايلت الجدران وتعانقت وعصرتني. ثم انثنت سميرة تصوب فيَّ النظر وتصعده. فحّت في أذني على استحياء:

- لا تشرب حتى نستطيع أن.. أنت تعرف ماذا!

خمنت مرادها الخبيث. سماء السقف شاحبة، والضوء شحيح عاجز. صنبور المياه معطل. لم أستحم.

***

وجوه بعيدة نائية، وأشباح دانية حميمة. ولا أعرفها. أنا الذي كنت قاصاً متميزاً واعداً، أين أنا وما مصدر هذه الأصوات؟ إنه التفسخ.

دعوت عبدالكريم إبراهيم الى تناول الغداء عندنا، ونسيت. تبخر الموعد من ذاكرتي. اكتفيت بساندويش شاورما من «وهبة». أتى وتناول الغداء مع سميرة.

***

فتات الفسيفساء

نوافذ تتفتح على الصحراء مباشرة. صوت ارتطام بين المنام وحلم اليقظة. بحر موجاته منسرقة القوى. خطوات

هواء عـادي تتناهى الى مـسـامـعي. إنها مـدينة البتراء. حيث قـرص الشمس يمزج بين عرقك وعرق حصانك. انتبذ مكاناً ظليلاً.

باغتتني ملامح المكان. توقفت. سألت الصبي:

ـ هل نحن في فندق عمرة عمان، أم فندق عمرة البتراء؟

***

تفـسـخ شظايا الوجـوه، فـسـيفساء أصوات تشتجر، ارمي نفسي في بركـة فندق عـمـرة الضـخم. وأزور مغارته المفروشة بـأثـاث غـربي. فـأرى سـمـيرة. كـانت تتـملص مني. تخفي عـينيـهـا، كـالعادة، عن عيني. مضيت في الظلام، وضربت بقـدمي في أرض لا عهد لي بها. أرض خفية.

***

مـدار الحروب. مجرة المومسات في شارع المتنبي المتفرع عن سـاحـة الشـهـداء. رأيت وجـهـهـا في بيغال باريس. أشحت مـضطرباً. اسـتـوقـفتني. نكست رأسي. كانت جهمة المحيا. لكن عطرها فـواح. في اليـوم التـالي نسـيت مـلامحها، ورحت أتنشق رائحتها من مقهى الى اخر.. بلا جدوى.

***

دنا مني عـبـدالكريم إبراهيم. قلت له وأنا أرفع منكبي في حركة تنم على لا مبالاة:

ـ لعلنا أقـارب. انت من أُسرة إبراهيم.. وأنا كذلك.

***

سميرة باتت ناضجة مثل الخوخ. أخاف عليها. تنتابها نوبات عصبية. تنشر شعرها، وتقطع عقدها، وتضرب صدرها. قالت بحقد اجتاحها بغتة، إنني مجرد واجهة ذات إجماع وطني وسمعة حسنة. وان الباقين انتهازيون؛ يتوارون خلف اسمي.

عنَّ لي أن أدخل في نقاش معها يفند ما تقوله. رحت أتلفت حولي فلم أجد لها أثراً. هل كنت أحلم؟ أم أن اليقظة الباهرة أشبه ما تكون بكابوس مظلم؟

الحزب بات عالمي ورسالتي، لا مجرد ملاذ من السأم.

***

سميرة ذات الوجه المشرق جللت وجهها بالنقاب في عمان، قبل أن تسافر الى خطيبها الذي طلب يدها لا قلبها ـ من شيكاغو.. أو واشنطن!

إنها تمقت الحجاب، لكنها تحلم بأميركا.. أرض الحرية والفرص وغياب «مؤسسة الناس».

***

شعرها طويل كالحياة. عيناها تختزلان قرى متخلفة. قالت إنها ستسافر الى أميركا.. الى خطيبها الذي لا تعرف سوى صورته. أنكرت ما أسمع، وأنكرت ما أبصر. دهمتني غبطة غامرة. تخلصت منها. شوارع عمان تندفع بتهور من الجبال الى خاصرة السوق. مشيت نحو مكتبة أمانة العاصمة. عبأت بطاقة استعارة. فأشار المدير العام الى

جهتي. ارتج علي فلم أهتد الى كلمة أقولها. مدير المكتبة زعم أنني كاتب كبير. وسألني عن مهنتي.

تضاحكت وقلت :

ـ مساعد قاعد، أي بلا مهنة.

أطرق المدير ملياً ثم رفع رأسه وقال :

ـ ابتداء من غدٍ. . سوف تعمل هنا. . في المكتبة.

***

شظايا الفسيفساء

تحاملت على نفسي، وافتتحت معرضاً بشعاً للرسم.

قال المدير العام:

ـ أنت . . مستشاري. . وأنا تعبان. . افتتح المعرض.

اللوحات أجساد نساء مشظاة مشروخة. سألني الرسام الموهوب عن رأيي في المعرض، في أثناء تصوير التلفزيون. فتحت فمي لأقول، فلم أجد ما اقوله.. اكتفيت بقص الشريط، وبعثرت كلمات لا معنى لها مثل :

ـ مبروك. . والله يعطيك العافية . . الخ.

لمحت سميرة. . تكلفت عدم معرفتها. رنت الي بعينين متفسختين، وتجاهلتني. عنَّ لي أن أدعوها لتناول الغداء في مطعم الفروج الذهبي. لكنها قبضت على يد رانية حين انتهى الدوام. وانطلقتا الى الشارع الدائري الذي يلف حول متنزه اللويبدة. وراحت عيونهما تثرثر. . وأنا وحيد لا أعثر على أذن طازجة تصغي الى حكايات تدور طوال النهار والاسبوع

والشـهر مثل أسطوانة مشروخة مملة.

***

محاضرتي اليـوم في «شـومان» عن ظاهرة الفسيفساء المشظاة في مجتمعنا.

***

فتات فسيفساء

صـديـق عـبـدالكريم دعـاني ودعـا عـبـدالكريم وسـميرة والأولاد الى بركـة نادي السيـارات الملكي. قالت سميرة: أن الأولاد بـحـاجـة الى نـفـس. أمحت مـلامح المضـيف من لوح ذاكـرتي، لكنني أذكـر أن مـضـيـفنا وهو يتـابع انثناء الأجساد وتكورها، وانبطاحـهـا ونشرها وضــمـهـا.. سألني عن تجربتي «المثيرة» في الحـروب التي خـضـتـهـا من بيروت الى البصرة. أطـلـقـت ضـحـكـة شـيطانيـة، فـتـحت جـراحـاً تتأبى على الاضـمـحـلال والالـتئام، رأيت جـراحي الجـوانيـة تونع مـثل أزهـار الشر.

غمغمت دون أن ألتفت:

ـ مجرد نزهة في متعة الجحيم.

أظـلـم وجـه الـرجـل بعـد إشراق. ورمـقني بنظرة نافـذة مـسـتطلعة. سألني إن كانت الحرب الأهلية أقسى من الحرب ضد عدو خارجي.

غطست بالماء. الماء البـارد يغـسل عرق الرعب. لا أمواج تـلـطـمـني. لكنْ ثمـة أصـوات تكر على أذني من كل قطر. أصـوات نـسـاء تختـلط بأصـوات أطفـال وزعـيق رجـال. ثم

عثرت على نفسي أفتح عيني تحت الماء، مشهد وأمض أو هلامي سحري أو باهر. كأنني أسمع صدى. أو أراه.. أصوات صدى الصمت في سكينة تسكن قاع البركة. تمتزج بأفخاذ وسيقان رجال ونساء، بعيدا عن الهمبرغر والكوكاكولا. بغتة دهمني إحساس راعب بنشوة الاستسلام لقعر هذه السكينة البشوشة.

بغتة عثرت على نفسي في حشد جماهيري ضخم في المدرج الروماني: ما كنت ثملاً. غير أني لا أدري كيف وصلت الى هنا. أي قوة غامضة عاتية حملتني الى هنا دون قيد أو إشارة على لوح الذاكرة. كانت الأكف ملتهبة كالجحيم، وحبال الحناجر تتقطع هتافاً مثل حبال أفكاري التي تنقطع بدون هتاف. هتفوا للعراق وفلسطين والصومال، وتوعدوا الشيطان الأكبر الذي رأيت هوله بأم عيني.

كانت عيونهم جاحظة متعطشة. كانوا ظماء. حانت مني التفاته فرأيت ملامح عبدالكريم، كان يراقب الخطيب المفوه بجمرتين يكاد أوارهما أن يحرق وجهي. التفت إليّ وقال:

ـ لا منجى لك سوى الانخراط في الحياة العامة، العودة لمعترك الحياة. اجتماعات، مؤتمرات، نقاشات، تظاهرات.. الخ.. لن يبقي لك هذا المنجى وقتاً لمعاقرة الخمر.

تلفت حولي. الجماهير الغفيرة لا تتطرق الى عبدالناصر حبيب الملايين.

قلبت شفتي السفلى، هززت منكبي وغمغمت:

ـ بل منجاي يكمن في امرأة تشبه بئر الأسرار السحيقة. مستحيلة مثل رانية.

وقمت بتثاقل، أدوس ذراع هذا، وأدفع منكب ذاك، وأشق طريقي وسط الجماهير الهائجة التي لم تشاهد بشاعة

وضراوة الشيطان الأكبر بأم عينها.

ورأيتني أنبثق من بين أطلال المدرج الروماني مثل كائن خرافي أسطوري، ثم رأيتني في مكتبة أمانة العاصمة. حيث القاعات الكئيبة القديمة والخشب الرخيص. اشتركت في المكتبة، قالت لي موظفة مهذبة مدجنة إنها ستسمح لي باستعارة كتابين على الرغم من أن القوانين تحتم علي الانتظار لمدة يومين. ثمة قراء عاطلون عن العمل. يقتلون الوقت بالتسكع وتصحف الكتب والمجلات. قراء يحملون رؤوساً نابية بين مناكبهم. ثمة قارىء يلحس إصبعه ليفتح الصفحات. لا بد أنه يقرأ «روزا لكسمبرغ» . إنه يلحسها باصبعه. . شفهياً.

ودفعتني الجموع الصاخبة نحو الجامع، وتلقفني صحن المسجد مثل كرة من النار. صليت وانتحبت وانتبذت ركناً قصياً. بغتة أدركت أن رانية لن تتواصل معي أبداً. اختراق حصنها المنيع على الحوار عصي. وأنا بلا حزب، ولا حب، ولا حرب جديدة تبدد مللي وعشقي لليأس. أعترف أنني أعشق اليأس . «هل أنت اليأس؟» سألت إمرأة تتخفى بطاقية إخفاء العورة. انتفضت وإجتزت الشارع باتجاه «البنك العربي». ورأيتني أمتطي سيارة أجرة. لم اتذكر ملامح السائق. لكن حدساً ما يحدثني بأني اعرفه منذ زمن سحيق. أمام فندق الأردن في جبل عمان وجدتني أقف كالملتاث. لا أدري من أين حصلت على البنزين. بدأت أستحم به. سكبته على رأسي. وهرعت مثل الومض نحو السفارة الأميركية. رقصت في غمرة اللهب رقصة بدائية وحشية. فتاة تحمل ملامح رانية بزغ وجهها من بين اللهب. هتفت ؛ تحتج ضد أميركا؟!؟ ولم يحاول عابر أن يبول على النار. قالت:

ـ السـفـارة الأمـيركـيـة رحلت من هنا الى «عـبـدون» منذ سنة.

وكان أوان اللهب قد فات.

.... ثم استيقظت يقظتي السوداء!

***

الشظايا والفسيفساء

عاد الى الأردن بعينين تتوهجان بالجنون وذاكرة ملغومة. لا يعرف أي حظ عجائبي أنقذه من مراصد الموت. كان مدمراً مثل سندباد عاد من رحلة مغامرات في بحار من الألغام والألغاز القاتلة. ارتمى على يابسة عمان.

وأخذ يلتقط أنفاسه كأنه بحار أسطوري خرج لتوه من الأعماق السحيقة لمحيط مظلم صاخب. لم يكن يرغب في الجنس أو الطعام أو التدخين. كانت تستحوذ عليه رغبة عارمة بالراحة والتأمل والكسل.

استقر في جبل المتقاعدين. جبل اللويبدة. صديقه الكاتب الأردني الذي تركه في بيروت قال له: إن عمان مدينة المتقاعدين. قال:

ـ هذا ما أبحث عنه بالضبط.. بعد كل هذا الصخب والجنون.

راح ينفق النهار بالتثاؤب اللذيذ. استأجر بيتاً قديماً، لا هاتف فيه ولا جرس باب. في الليل يضطجع على أريكة ويتفرج على التلفزيون. أدمن التلفزيون، وأفلام الفيديو. حتى المسلسلات المصرية السخيفة صار يتابعها بمتعة. يقرأ صحف الصباح وهو يحتسي فنجان قهوة. ثم يخرج الى الحديقة الصغيرة فيسقي نباتاتها ويرش أرضها. يعود الى الصالة الصغيرة، يفتح كتاباً من كتب «أرسين لوبين» ويطالعه. قالوا له في بيروت خذ مكتبتك الهائلة معك الى عمان، فرفض. أحرقها. أحرق كتب ماركس وساطع الحصري والنفري ودوستيفسكي.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠
تلكس، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧
الغلاف: زهير أبو شايب